

التمهيد :

نزل القرآن والمجتمع الإنساني بصورة عامة والمجتمع العربي بصفة خاصة بتطلع للتغير ويتربق وقوع الحدث العظيم الذي ينتشله من واقع الضياع والشرك والضلالة والأغلال وسيادة قانون الغاب .

وفي وسط هذه الظروف سطع نور الإسلام ليبدد دياجير الظلام ويحدث تغييراً في جميع نواحي الحياة ، والنظم التي جاء بها القرآن تحمل في ثناياها منهجاً تطويراً يتلاءم وظروف الزمان والمكان ويستهدف مصلحة البشرية كافة ، كما في قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ (1) .

وفي خطابه (⇒) لمبلغ هذه الرسالة قائلاً : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (2) .

يعد تأكيداً على عظم هذه الرسالة وكما لها خصوصاً وان مصدرها الخالق (⇒) وهي بذلك خالية من النقص وتمتلك الهيبة لكون المؤمنين يدينون لخالقهم بالعبودية كما جاء في قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (3) .

وهنا يظهر اختلافه عن الأنظمة الوضعية التي مصدرها الإنسان ، وتميز القرآن بشمول أنظمته مجالات الحياة كافة لا يوجد شيء يخص الفرد أو الجماعة أو الدولة أو المجتمع الإنساني إلا ومنه توجيه من التشريع كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (4) .

(1) سورة الأعراف ، من الآية : 158 .

(2) سورة الأنبياء ، الآية : 107 .

(3) سورة البقرة ، الآية : 2 .

(4) سورة يوسف ، من الآية : 111 .

إن خلقه (⇒) لبني آدم ليس من دون غاية أو هدف أو ليترك سدى ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (1) ، بل جعل له مصدر هداية :

﴿... فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (2) .

فالقُرآن العظيم نظام حياة وقانون وعدل ، لقد حملت السور المدنية في طياتها تشريعات في البيع والإجارة والربا والجناية من قتل وسرقة والأحوال الشخصية من زواج وطلاق وإن أصول الأحكام التي جاء بها التشريع المدني هي أشبه ما تكون بقوانين الدولة ، وكان التشريع أكثر ما يكون بمناسبة حوادث تحدث فيتحاكم فيها المتخاصمون إلى رسول الله (ﷺ) فتتزل الآيات ناطقة بالحكم ، وكان الناس حتى في المدينة يسرون فيما لم يرد به حكم إسلامي على المؤلف عندهم في الجاهلية . وخاصة أن العرب كانوا شديدي التمسك بعاداتهم وأعرافهم (3) ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿اسْأَلُوا الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (4) .

لهذا نرى أن آيات الأحكام قد أبقت على الكثير من التقاليد التي كان العرب يتمسكون بها في الجاهلية سواء منها ما يتصل بحياتهم الاجتماعية أو العائلية أو ما لها صلة بحياتهم الدينية وطقوسهم مما ليس له مضرّة على بناء المجتمع الإسلامي الجديد أو على مبادئ وتعاليم الإسلام ، كما أبقي بعض مشاعر الحج كما في رمي الجمار والطواف والوقوف بعرفة وعند المشعر الحرام وتحريم الصيد في الإحرام وحرمة الأشهر الحرم وكذلك أبقي نظام التسري بالإماء والإبقاء على حالة

(1) سورة القيامة ، الآية : 36 .

(2) سورة طه ، من الآية : 123 .

(3) أحمد أمين ، فجر الإسلام ، 1/279-281 .

(4) سورة الأنعام ، الآية : 148 .

الرق مع التشجيع على تحرير الرقيق ومعاملتهم بالحسنى⁽¹⁾ ، لأن الكثير من العادات راسخة لا يمكن إلغاؤها جميعها وتعصب الناس لها ، وإن إلغاؤها جميعها يشكل عقبة في وجه انتشار الدعوة للإسلام هذا علماً بأن نظام الرق كان سائداً في جميع المجتمعات القديمة ، وكان موجوداً في الديانتين اليهودية والمسيحية ، وقد ألغى الإسلام ما يتنافى مع المبادئ والقيم السامية ومع الذوق الرفيع والمصلحة العامة ، كالزواج بزوجة الأب والجمع بين الأختين والذبح عند الأنصاب والزنا والتخادن والمسافحة وشرب الخمر والاستقسام بالآلام وغيرها⁽²⁾ .

الفصل الأول

القبيلة ومكوناتها وعناصرها :-

لقد كان النظام القبلي السائد في المجتمع العربي والبيئة العربية والذي لم يكن مقتصرًا على الصحراء فحسب بل حتى في أغلب المدن الموجودة في أطراف

(1) دروزة ، عصر النبي ، ص 180 .

(2) المصدر نفسه ، ص 180 .

الجزيرة العربية ، وتمثل القبيلة الوحدة السياسية والاجتماعية فيها^(*) ، كما جاء في قوله تعالى : «وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...» (1).

ولم يقتصر تأثير النظم البدوية في الحياة العربية ما قبل الإسلام بل أثرت في نظم الحياة في عصر الإسلام أيضاً ونجد ذلك واضحاً في كثير من أحداث التأريخ الإسلامي .

والقبيلة : هي مجموعة من الناس ينتمون إلى اصل واحد أو يزعمون أنهم ينتمون إليه أو إلى جد واحد انحدروا منه⁽²⁾ ، كما في قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً....» (3) .

ويسكنون منطقة واحدة يتنقلون في أرجائها أو إلى ما جاورها من المناطق إذا اقتضت الحاجة ، تربطهم رابطة الدم والعصبية للأهل والعشيرة ، وقد وردت إشارة إلى ذلك في قوله تعالى : «أَقُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...» (4) .

ويختلف أعداد أفراد القبيلة من قبيلة إلى أخرى فالقبيلة في حالة تغير فهي تتجزأ إلى عشائر وبطون نتيجة للتوسع الذي يحصل بسبب زيادة أفرادها بمرور الوقت ، وكانت القبيلة عادة تفاخر بكثرة عدد أفرادها ، وقد وصل الأمر ببعضهم

(*) وقد تكلمنا عن القبيلة في الباب الأول كنظام سياسي ص 29.

(1) سورة الحجرات ، من الآية : 13 ، ولهذه الآية معنى حضاري ، وهو أن الغرض من هذه الكثرة من الخلق هو التعارف وليس من الضروري أن يشيع بينهم الاقتتال والتقاطع ، ومنه إشارة أن أسباب التفاضل عندهم هي غير ما عند الله وهي التقوى ؛ ينظر الحنفي ، جلال البغدادی ، الحضارة الإسلامية من خلال الآي القرآني ، ط1 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد-2003) ، ص 130 .

(2) ابن منظور ، لسان العرب ، 541/11 ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، 424/2 .

(3) سورة النساء ، من الآية : 1 .

(4) سورة التوبة ، من الآية : 24 .

حين يفاخرون في ذلك يضعون الأموات مع الأحياء⁽¹⁾ ، كما جاء في كتاب الله العزيز : «أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ⇒ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ»⁽²⁾ ، والقبيلة هي منبع القيم الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك المجتمع لا الأسرة فالفرد لا يشعر بولاء مطلق لأسرته فقط وإنما لقبيلته في المقام الأول لأنها تقدم له المأوى والطمأنينة والحماية وتزود عنه في الشدائد وهذا ما يلهمنا قوله تعالى : «يُبَصِّرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ يُؤْمِنُ بِبَنِيهِ ⇒ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ⇒ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ⇒ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ»⁽³⁾ .

وتنقسم القبيلة عادة إلى ثلاث طبقات اجتماعية :-

طبقة الأحرار : وهم أبناء القبيلة المنحدرون من اصل واحد يجمعهم الدم والنسب يتساوون في الحقوق والواجبات وكانت لهم امتيازات كثيرة ويتفاوتون بهذه الامتيازات بحسب شرف البيت الذي ينتمون إليه⁽⁴⁾ ، والذين يتميزون بالمروءة ومتطلباتها والفروسية ، فالفرد جزء من القبيلة ينطوي تحت لوائها ويعيش لها كما صور لنا الشاعر ذلك بقوله :-

وهل أنا إلا من غزيه إن غوت غويت وإن ترشد غزية ارشد⁽⁵⁾

والفرد الذي لا يجاري عرف القبيلة نبذته وأهدرت حقوقه وليس أمامه إلا اللجوء إلى قبيلة أخرى فيصبح مولى لها أو يتخذ الصحراء ملاذاً له فيكون النهب والسلب وقطع الطرق وسيلة له ، وهم صعاليك العرب .

(1) الطبري ، تفسيره ، 283/30 ؛ النسفي ، أبي البركات عبد الله بن احمد بن محمود ، (ت710هـ) ؛

تفسير النسفي ، (د.م-د.ت) ، 354/4 .

(2) سورة التكاثر ، الآية : 1-2 .

(3) سورة المعارج ، من الآية : 11-14 ، والفصيلا : هي العشيرة ؛ ينظر الطبري ، تفسيره ، 29-75 .

(4) العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، 134/1 .

(5) أبو تمام الطائي ، حبيب بن اوس ، (ت231هـ) ، ديوان الحماسة ، شرح : التبريزي ، أبي بكر زكريا

يحيى علي الخطيب ، تحقيق : محمد محي الدين ، مطبعة حجازي ، (القاهرة- د.ت) ، 29/1 .

- طبقة الحلفاء : وهم الذين لا يرتبطون مع القبيلة بروابط الدم أو النسب وإنما انظموا إليها لأسباب عديدة كزواجهم من القبيلة أو هروبهم من قبائلهم الأولى أو عن طريق ارتباطهم بالقبيلة عن طريق حلف أو معاهدة أو اتفاق أو ميثاق حيث يضعون أنفسهم تحت حماية القبيلة وتكون هذه المواثيق والمعاهدات عادة غير مكتوبة⁽¹⁾ ، ولكن القرآن الكريم قد تشدد على الالتزام بها ، كما في قوله تعالى :
﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ...﴾ (2) . وقوله تعالى :
﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (3) .

- الطبقة الثالثة : وهم طبقة العبيد في القبيلة وهم أدنى الطبقات في المجتمع القبلي وهم الذين يقومون بخدمة بيوت القبيلة وغالباً ما يكونوا من أسرى الحروب او عن طريق الشراء من الأسواق أو من استقدامهم من الحبشة لهذا الغرض⁽⁴⁾ ، لقد حاول الإسلام دمج القبيلة في المجتمع الإسلامي الجديد فأقر القيم القبلية الأصيلة وشجع عليها والتي تتماشى مع مبادئ الشريعة الإسلامية السمحة ، وهذب البعض الآخر من الأعراف والعادات والغى البعض الآخر التي تضر بالمجتمع ووحدته وبتعاليم الإسلام التي تدعو إلى العدل والمساواة والأخوة وإحلال رابطة العقيدة بدل رابطة الدم كما في قوله تعالى :
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (5)

لذلك فقد هاجم القرآن الكريم الأعراب الذين ظلوا متمسكين بحياة البداوة والثرار وخشونة الطباع فاتهمهم بالنفاق وقلة الإيمان كما في قوله تعالى :

(1) العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، 134-135 .

(2) سورة النحل ، من الآية : 91 .

(3) سورة الرعد ، الآية : 20 .

(4) صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، 35/1 .

(5) سورة الحجرات ، الآية : 10 .

«الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (1) .
 وقوله تعالى : «قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ...» (2) .

بينما امتدح القرآن المؤمنين منهم كما جاء في قوله تعالى : «وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ...» (3) .

وتربط أبناء العشيرة الواحدة رابطة العصبية للأهل والعشيرة وهي شعور بالتضامن والاندماج بين من تربطهم رابطة الدم وهي تدعو إلى نصره الفرد لأفراد قبيلته .

وشعارهم في ذلك (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) (4) والذي استبدله الإسلام ألا تنصره إلا على الحق : «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» (5) .
 وعن الرسول (ﷺ) قال : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) .

فتعجب المسلمون من ذلك لأنه شعار الجاهلية فسألوا الرسول : كيف ننصره ظالماً ؟ قال : (تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره) (6) ، وقد ظل الاهتمام بالأنساب في المجتمع الإسلامي وحث على العناية به فقد روي عن الرسول (ﷺ) قوله : (تعلموا من النسب ما تعرفون به احسابكم وتصلون به أرحامكم) (7) ، ومن لم يعرف الناس لم يعد من الناس (8) ، وكان الرسول (ﷺ) نفسه عالماً بالأنساب ، وكذلك أبو بكر

(1) سورة التوبة ، الآية : 97 .

(2) سورة الحجرات ، من الآية : 14 .

(3) سورة التوبة ، من الآية : 99 .

(4) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 40/3 .

(5) سورة الحج ، من الآية : 71 .

(6) صحيح البخاري ، 2550/6 ؛ الترمذي ، سنن الترمذي ، 523/4 .

(7) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، (كتاب اليتيمة) ، 258/2 .

(8) المصدر نفسه ، 258/2 .

الصدىق (◀) ، وشجع عمر بن الخطاب (◀) على تعلم الأنساب أيضاً⁽¹⁾ ، وقد أشار القرآن الكريم إلى قوة صلة الأرحام المتأتية من معرفة النسب كما في قوله تعالى : «... وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ...» (2) .

وأصبحت الأنساب أساس التنظيم المدني والاجتماعي في الأمصار العربية وعند العرب حتى من غير العرب اضطروا عند سكتهم الأمصار الانتساب إلى القبائل العربية باعتبارهم موالى⁽³⁾ ، ولكن تشجيع الرسول (ﷺ) على معرفة الأنساب لا للتفاخر والتفاضل والتقاتل وإنما لتنقية الأنساب ولمواصلة ذوى الأرحام وخاصة الفقراء منهم كما في قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ ...» (4) .

لهذا نرى الإسلام حاول التخفيف من العصبية القبلية التي تؤدي إلى التقاتل والتناحر من أجل بناء المجتمع الإسلامي الجديد الذي يقوم على رابطة المؤاخاة والولاء للجماعة الإسلامية بدل الولاء لرابطة العصبية القبلية لذلك فإن الإسلام حذر من مواصلة موالاة ذوى الأرحام من الكفار ، وقد تضافرت عدة آيات لإبراز المعنيين كما في قوله تعالى :

1- «وَاغْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ...» (5) .

(1) الهمداني ، الإكليل ، 166/1-167 .

(2) سورة النساء ، من الآية : 1 .

(3) صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، 129/1 .

(4) سورة الحجرات ، من الآية : 11 ، وكما في الآية 13 من نفس السورة

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ) وقد ذكرناها .

(5) سورة آل عمران ، من الآية : 103 ، وهنا إشارة للحروب بين الأوس والخزرج ولنظام المؤاخاة ؛

ابن هشام ، السيرة ، ق/429 .

- 2- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا
الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ
أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا» (1) .
- 3- «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
رَاكِعُونَ» (2) .

وفي حديث عن الرسول (ﷺ) : (من قاتل تحت راية عمية يغضب للعصبية أو
يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية فقتل فقتله جاهلية) (3) .

وقد أكد دستور المدينة أو كما عرف بالصحيفة التي نصت على أن السيادة
للدولة وليس للقبيلة وإن مجتمع الإسلام ليس مجتمع العصبية القبلية ، وإنما هو
أمة واحدة من دون الناس يكون الولاء فيه للدولة ولأمة الإسلام وللمؤمنين وليس
للكفار (4) ، ويمكننا أن نميز خمسة أنواع من العصبية على ضوء ما جاء في القرآن
الكريم وهي :-

أولاً :- عصبية الأقارب وذوي الأرحام :-

وهي أقرب أنواع العصبية في اللحمة الاجتماعية حيث كانوا أفراد العائلة أو
الفخذ أو البطن أي أفراد الوحدة الاجتماعية الصغرى الذين تجمع بينهم الأرحام
القريبة .

يتضامنون معاً كأفراد الأسرة الواحدة في الدفاع عن بعضهم أو الاستنصار
لبعضهم في مختلف المواقف والمصالح حتى لو كان بينهم قطيعة .

وهي مصدر الترابط الوثيق بين أفراد القبيلة ومجتمعها (5) ، وربما تكون قريبة
إلى العشيرة وهي من المعاشرة في الأسرة الواحدة وإن مجموع العشائر تكون

(1) سورة النساء ، الآية : 144 .

(2) سورة المائدة ، الآية : 55 .

(3) مسلم ، صحيح ، 1478/3 ؛ البيهقي ، سنن البيهقي الكبرى ، 156/8 .

(4) ابن إسحاق ، السيرة ، 348/2-350 .

(5) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 53 .

القبيلة⁽¹⁾ ، لذلك حين خاطب الله رسوله الكريم في كتابه العزيز وطلب منه أن يعرض الإسلام على أقربائه قال : «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»⁽²⁾ ، فجمع قريشاً فنأدى أفضاها الأقرب فالأقرب فخذاً فخذاً وقال : يا بني عبد المطلب ، يا بني هاشم ، يا بني عبد مناف ، يا عباس عم النبي ، يا صفية عمة رسول الله ، وروي انه جمع بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً ، ولأن لعشيرته علاقات زواج بكافة عشائر مكة لذلك لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله وبينهم قرابة⁽³⁾ .

واهم مظاهر هذه العصبية التفاخر والثأر وعصبية الأقارب وذوي الأرحام البعيدة ربما كانت أقوى من المعتقدات الدينية .

وابرز مثال على ذلك وقوف بني هاشم يحمون النبي في مكة ضد بقية بطون قريش استجابة منهم لعصبة الرحم والقربى على الرغم من أن الكثير منهم كان على الشرك⁽⁴⁾ . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى : «وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ»⁽⁵⁾ .

وفي التقاليد العربية في الجاهلية وحتى بداية ظهور الإسلام التي تصور شدة العصبية وهي الثأر ، وهو أن يكون للقتيل ولي أو صاحب دم يثأر له من غريمه ، وقد يكون من غير أبنائه أو إخوانه فقد يكون رئيس الأسرة⁽⁶⁾ ، وإذا عجز هؤلاء عن الثأر كان أمراً مفروضاً على القبيلة ، وكان بعض أصحاب الدم لا يكتفون بالقصاص وإنما يتجاوزوه ويسرفون به مما يؤدي إلى حروب وثورات كثيرة كما هي حروب

(2) الهمداني ، الإكليل ، 26/1 ، 22 ؛ الزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني ، تاج العروس ، تحقيق :

إبراهيم التبريزي ، مطبعة الكويت ، (الكويت-1965) ، ج3 ، ص12 ، مادة (اسر) .

(2) سورة الشعراء ، الآية : 214 .

(3) ابن سعد ، الطبقات ، 200/1 ؛ الطبري ، تفسيره ، 319/2 ؛ الزمخشري ، الكشاف ، 339/3-340 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق1-350-351 .

(5) سورة الأنعام ، الآية : 26 .

(6) الميداني ، أبو الفضل احمد بن محمد النيسابوري ، (ت518هـ) ، مجمع الأمثال ، (مصر-1353هـ) ،

ج1 ، ص24-25 .

الأوس والخزرج في يثرب⁽¹⁾ ، لهذا حاول الإسلام الحد من هذه الحالة موضحاً أهمية حياة الإنسان التي حرم الله قتله موضحاً العبرة من القصاص حفاظاً لحياة الآخرين ، : «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»⁽²⁾ .

وقد جعل (⇒) لولي المقتول الحق بالقصاص ولكن دون إسراف : «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا»⁽³⁾ .

وقد يلجأ أصحاب العقل إلى المفاوضات فيظهر ما يعرف (بالعقل أو الدية) إذا تم الصلح والكف عن الثأر ، ويجمعون الدية من تركة القاتل أو من أقاربه وذوي رحمه مقابل الدم الذي أراقه لهذا تراهم جعلوا أنفسهم أحق الناس بدمه فتوزع عليهم ديته ، وورثة من لا وارث له⁽⁴⁾ .

ومن هنا جاء دعوى الرجال إلى اعتبار أنفسهم أصحاب الحق في الإرث دون النساء والأطفال لأنهم الغارمون ، حيث كانوا يقولون : (أنورث أموالنا من لا يركب الفرس ولا يضرب بالسيف ولا يسوق الغنم)⁽⁵⁾ .

وجعل (⇒) دية قتل الخطأ : «...وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ...»⁽⁶⁾ .

(1) السمهودي ، وفاء الوفا ، 215/1-220 .

(2) سورة البقرة ، الآية : 179 .

(3) سورة الإسراء ، الآية : 33 .

(4) المشهداني ، محمد جاسم حمادي ، الأنساب العربية ودورها في تدوين تأريخ الأمة ، دار الشؤون الثقافية ، (بغداد-د.ت) ، ص23 ؛ خليف يوسف ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، دار المعارف ، (مصر-1959) ، ص8 .

(5) السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ، (ت581هـ) ، الفرائض وشرح آيات الوصية ، ط2 ، تحقيق : د. محمد إبراهيم البنا ، المكتبة الفيصلية ، (مكة المكرمة-1405هـ) ، ص27 .

(6) سورة النساء ، من الآية : 92 .

لقد أبقي الإسلام على رابطة العشيرة والأرحام فلم يحلها بل جعلها داخل النطاق العام لتركيبية المجتمع الإسلامي الجديد وأبقى على العشائر النفقات التي ليست ذات صيغة خاصة محضة وخصوصاً دفع الدية وفداء الأسرى ، وهذا ما جاء في كتابه العزيز وأكدت عليه صحيفة المدينة ودستورها وكذلك أبقي الإسلام للعشيرة مسألة الولاء (1) .

وقد جاء في السيرة أن الرسول (ﷺ) ذهب إلى يهود بني النضير طالباً منهم معاونته في دفع دية الرجلين اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري في حادثة بئر معونة (2) .

ويذكر أن الرسول (ﷺ) عندما فتح مكة أمر بقتل مقيس بن حُبابة لأنه قتل الأنصاري الذي قتل أخاه خطأ بعد استلامه ديته ورجوعه إلى قريش مشركاً (3) .

وكذلك دعا الإسلام إلى موالاة ومواصلة ذوي الأرحام من المسلمين ، وذلك لعظم مكانة الرحم عنده (4) وكذلك عظم مكانتها عند العرب ، فقد كان الرجل يسأل بالله وبالرحم (4) ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (5) .

وتأكيداً لذلك جعل (6) لذوي القربى نصيباً معلوماً في الغنائم وهو خمس الغنيمة : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ... ﴾ (6) .

وتأكيداً لما ذكرناه عن تحذيره (7) للمؤمنين عن مواصلة ذوي القربى وذوي الأرحام من الكفار ومحاولة منه سبحانه وتعالى بتخفيف هذه الصلة مع الكفار فقد ضرب لهم مثلاً النبي إبراهيم (8) والمؤمنين من قومه حين اعتزلوا قومهم وتبرؤوا

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق/1-501-502 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق/2-190 ؛ الواقدي ، المغازي ، 365-363/1 .

(3) المصدر نفسه ، ق/2-410 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 4/568 .

(5) سورة النساء ، من الآية : 1 .

(6) سورة الأنفال ، من الآية : 41 .

منهم لإصرارهم على الكفر⁽¹⁾ ، كما في قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾⁽²⁾ .

: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾⁽³⁾ .

وهنا صرخة قوية للمؤمنين بعدم الميل وإتباع الهوى لعصبية القربى وذوي الأرحام وخاصة في شهادة الحق ، حتى لو كانوا من فقراء وضعفاء المسلمين فحالق لا يعرف غني وفقير فقد يكون الغني هو صاحب الحق والفقير هو المعتدي فالله أولى بهما⁽⁴⁾ ، كما في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾⁽⁵⁾ .

وقوله تعالى : ﴿...وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ...﴾⁽⁶⁾ .

والعدل مبدأ ضروري دعا إليه الإسلام في القول والفعل⁽⁷⁾ ، وهكذا هو المؤمن عندما تقرن أقواله بأفعاله ليتم بناء المجتمع السليم ويستتبق الأمن والاطمئنان.

(1) الطبري ، تفسيره ، 44-43/11 .

(2) سورة التوبة ، الآية : 113 .

(3) سورة التوبة ، الآية : 114 .

(4) القرطبي ، تفسيره ، 413/5 .

(5) سورة النساء ، الآية : 135 .

(6) سورة الأنعام ، من الآية : 152 .

(7) ابن كثير ، تفسيره ، 190/2 .

وسئل رسول الله (ﷺ) : (أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟ قال : لا ولكن من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم)⁽¹⁾ .

وقد واصل الإسلام دعوته على صلة الأقارب وذوي الأرحام من المسلمين كما في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (2) .

وهنا ترغيب منه (ﷺ) عند حضور ذوي القربى من غير الورثة أو العصبية أي ذوي الأرحام البعيدة ممن ليس لهم الحق في تركة وقسمة المتوفى ، بأن يعطوا حتى ولو كان ما أعطوه قليلاً وإن يقال لهم قولاً حسناً مثل بارك الله عليكم وعدم المن عليهم⁽³⁾ .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ...﴾ (4) .

: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ (5) .

وكان سبب نزول الآية الأخيرة أن أبا بكر كان ينفق على ابن خالته مسطح وهو من فقراء المهاجرين ، وكان من المشاركين في معركة بدر فلما كان له شأن في (حديث الإفك) غضب عليه واقسم أن لا ينفق عليه فنزلت هذه الآية تحثه على العفو عنه كما عفا عنه الله⁽⁶⁾ .

(1) ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، 1302/2 .

(2) سورة النساء ، الآية : 8 ؛ وقد ذكرنا العديد من الآيات في هذا المعنى في بداية الموضوع .

(3) القرطبي ، تفسير ، 49/5 ؛ النسفي ، تفسير النسفي ، 206/1 .

(4) سورة الأنفال ، من الآية : 75 .

(5) سورة النور ، من الآية : 22 .

(6) الطبري ، تفسير ، 92/18 .

ثانياً - عصبية القبيلة :-

كان أفراد القبيلة الواحدة يتكاتفون ويتضامنون وكذلك بطونها وعشائرها ضد القبائل الأخرى في الحروب والدماء والأخطار دفاعاً عن المصالح المشتركة ، ويتعاونون على المغارم والديات⁽¹⁾ .

فهذه العصبية موروثة بين أشخاصها ، حيث يقدم الإنسان نفسه للموت في معركة من أجل شرف القبيلة وكرامتها ومن أجل الرباط المعروف اليوم برباط الدم⁽²⁾ .

وكل قبيلة متكاملة مترابطة كالحلقة الواحدة المحكمة يحمي بعضها بعضاً ويكمل بعضها بعض ، وكانوا يتناصرون ظالمين ومظلومين ، وإن أي اعتداء يقع على أي فرد من القبيلة إنما واقع على القبيلة كلها ومن واجبهم أن يدافعوا عنه وإن يثاروا من المعتدي ، وخاصة في حالة الحرب بين القبيلتين مهما كان الباعث ومهما كانت ميولهم وعواطفهم متغايرة⁽³⁾ .

فقد قاتل الكثير من الاوس ممن كانوا على الشراك مع أفراد قبيلتهم ممن دخل الإسلام ، عصبية لهم في الكثير من المعارك والحروب الإسلامية وربما كان المنافقون قد فعلوا ذلك للأسباب نفسها ، فالكثير من المنافقين اسلموا وخاصة من الخرج مسايرة لقومهم ولم يدخل الإيمان قلوبهم لهذا نرى مواقفهم المتذبذبة المتخاذلة من الإسلام والمسلمين فكانت قلوبهم وولأوهم الظاهري للمسلمين وهناك عدة آيات تشير إلى هذه الحقيقة كما جاء في قوله تعالى :-

1- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ...»⁽⁴⁾ .

(1) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 57 .

(2) ابو تمام الطائي، ديوان الحماسة ، 43/1 ، 125/1-128 ، 195 .

(3) دروزة ، عصر النبي، ص 165 .

(4) سورة آل عمران ، من الآية : 156 .

2- ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ...﴾ (1) .

وتذكر الروايات أن الآيتين نزلتا في زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول وقومه من المنافقين والآية الثانية نزلت عندما رجع عبد الله بن أبي في معركة أحد بثلاث الجيش من الأنصار بما فيهم المنافقين والمؤمنين فما كان اعتذارهم وتبريرهم لفعلهم إلا أنهم لم يتوقعوا أن يكون هناك قتال بين المسلمين والمشركين (2) .

وقد بلغت عصبية القبلية إن احد المشركين من الخزرج قاتل مع قومه من المسلمين وقتل دون عشيرته في معركة احد فقد جاء في السيرة إن رجلاً في الأنصار يسمى قزمان قاتل قتالاً شديداً في معركة أحد حتى أثخن بالجراح وحين بشره أصحابه من المسلمين بالجنة ؟ كان جوابه: (بماذا أبشر ؟ فوالله إن قاتلت إلا عن قومي ، ولولا ذلك ما قاتلت) (3) .

لذلك فقد قال الرسول (ﷺ) فيه : (إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل

الفاجر) (4) ، و للأسباب نفسها كانت بعض بطون القبائل الضاربة حول المدينة تريد مسالمة المسلمين والدخول في عهدهم ، ولكنها تتحرج لأن بقية البطون ضد المسلمين فلا يستطيع هؤلاء التحالف مع المسلمين ضد قومهم ولا يستطيعون التضامن مع قومهم ضد المسلمين لأن ميلهم للمسلمين (5) ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ

(1) سورة آل عمران ، من الآية : 167 .

(2) الطبري ، تفسير ، 490/4 ، 510/4 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق/88 .

(4) ابن قتيبة ، المعارف ، ص 161 .

(5) الطبري ، تفسيره ، 199/5-202 .

فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا
إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا⁽¹⁾ .

وهذه الآية تشير إلى قوة المسلمين من جهة بحيث يخشى بأسهم وتشير من
ناحية أخرى إلى قوة العصبية القبلية .

وقد أبقى الرسول(ﷺ) على وحدة القبائل العربية وأكرم وفودهم بعد فتح مكة
وأبقى زعماءهم ورؤساء قبائلهم على ما كانوا عليه دون أن يتعرض لهم⁽²⁾ ، وكان
يقول (الناس معادن خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا)⁽³⁾ .

ثالثاً- عصبية التحالف القبلي أو عصبية الأحزاب :-

وقد تنشأ هذه العصبية بين الأفراد المتحالفين ويشهر هذا الحلف ليكون
معلوماً بين الناس ، وقد تتحالف القبائل أيضاً مع بعضها البعض ، وقد يأخذ الحلف
شكلاً سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً ، وأحياناً يعقد الحلف لأغراض هجومية أو
دفاعية وقد يكون الحلف وقتياً ، وقد تسعى قبيلة لعقد حلف مع قبيلة أخرى
لمساعدتها في صد غزو أو هجوم عليها⁽⁴⁾ ، أو الأخذ الثأر من قبيلة أخرى وهذا
النوع من الأحلاف يكون وقتياً ينتهي بانتهاء الغاية منه ، ومن المألوف أن يسعى
الضعيف لعقد حلف ممن هم أقوى منه وكان عدد كبير من القبائل داخلاً في أحلاف
ما عدا بعض القبائل القوية .

وتتميز هذه الأحلاف بقدسيته لدى القبائل العربية⁽⁵⁾ ، حيث كان العرب
يوثقون أحلافهم عادة بالتصافح بالأكف والتحالف على النار والتعاقد على الملح
وباليمين الغموس ، ويتم الحلف عادة بالقسم ليكسب صفة القدسية وقد يصحبه لعق

(1) سورة النساء ، الآية : 90 .

(2) ابن سعد ، الطبقات ، 1/291-359 .

(3) معمر بن راشد (ت151هـ) ، الجامع ، ط2 ، تحقيق: حبيب الاعظمي ، المكتب الإسلامي ،

(بيروت-1403هـ) ، ج11 ، ص316 .

(4) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 1/310 ، وما بعدها (عن أيام العرب وفيه ذكر محالفات القبائل) .

(5) الأصفهاني ، الاغانى ، 12/118 ، وما بعدها .

الدم ليعوض عن الدم الموروث⁽¹⁾ ، وقد يغمس المتحالفون أيديهم في الطيب كما حدث في حلف المطيبين في مكة⁽²⁾ ، ونستطيع أن نستوضح ذلك من خلال قول الشاعر زهير بن أبي سلمى :

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالةً وذبيان : هل أقسمتم كل مقسم⁽³⁾

ويتخذ المتحالفون صيغة شكلية كلامية تسموا بالحلف ، كما حصل فيبيعة العقبة الثانية عندما أراد أبو الهيثم بن التيهان أن يستوثق من الرسول (ﷺ) عن عدم ترك الرسول الأنصار ورجوعه إلى مكة إذا ما أظهره الله بدين الإسلام ؟ فأجابه الرسول قائلاً : (بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وانتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم)⁽⁴⁾ ، وقد يتضمن أيضاً (ترثني وارثك وتطلب بي واطلب بك وتعقل عني واعقل عنك)⁽⁵⁾ ، ومن الأحلاف العربية الأخرى حلف الأحلاف ، وحلف الفضول⁽⁶⁾ ، وحلف الرباب⁽⁷⁾ ، وحلف الحمس بين قريش ، وخزاعة وكنانة⁽⁸⁾ ، وقد ضرب العرب أروع الأمثلة في المحافظة على العهود والمواثيق ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من التحالف في أكثر من آية وصور قوة عصبية التحالف ، ومنها الحلف الذي كان بين اليهود والايوس

والخزرج ، فريق من اليهود مع الايوس وفريق آخر مع الخزرج فيقاتل كل فريق مع حليفه في الحروب وما ترتب عليها من قتل اليهودي لأخيه أو أسره ومن ثم مفاداته وهذا محرم عليهم في شرعهم .

(1) المصدر نفسه ، 26/7 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق130-132 .

(3) زهير بن أبي سلمى ، ديوانه ، تقديم : كريم البستاني ، دار صادر ، (بيروت- د.ت) ، ص81 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق442/1 ، والهدم بمعنى الحرمة أي ذمتي ذمتك ، هامش المصدر .

(5) ابن دريد ، أبي بكر محمد بن الحسن ، (ت321هـ) ، الاشتقاق ، ط2 ، تحقيق : عبد السلام هارون ، مكتبة المثنى ، (بغداد-1929) ، ص304-305 .

(6) ابن هشام ، السيرة ، ق133/1 .

(7) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 141/5 ، أسماء القبائل المشاركة في الحلف (ضبة ، عكل ، ثور ، وتيم ، عدي) .

(8) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 359/1 .

وقد ندد القرآن الكريم بذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٢) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تَفَادَوْهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ... (١).

وندد القرآن الكريم باستمرار التحالف بين اليهود ومنافقي المدينة على الرغم من خيانة اليهود ونقضهم لعهودهم مع رسول الله (ﷺ) ووعدوهم بالمناصرة^(*) ، ويبدو أن حلف اليهود مع الاوس والخزرج كان من العهود الطويلة الأمد حيث استمرت حتى بعد تأسيس دولة الإسلام في المدينة .

ويبدو لنا أن سبب اضطبار رسول (ﷺ) للجاج اليهود وإظهارهم للعداوة ، هو حلفهم مع الاوس والخزرج ، وكان بسبب الحلف بين الاوس واليهود من بني النضير ، أن حكم الرسول (ﷺ) فيهم حليفهم عبد الله بن أبي بن سلول الذي حكم بإجلائهم من المدينة فقط دون قتلهم أو أخذ أموالهم المنقولة⁽²⁾ ، فأخذ الرسول (ﷺ) بحكمه ، ولما حَكَمَ الرسول (ﷺ) سعد بن معاذ حليف قريظة في تقرير مصيرهم حكم بقتلهم وأخذ أموالهم جزاءً على خيانتهم ، وقد أيد النبي هذا الحكم وقال لسعد هذا حكم الله⁽³⁾ .

وقد نهى (ﷺ) المسلمين من موالاة الكافرين كما جاء على لسان نبيه :

1- ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي

(1) سورة البقرة ، الآية : 84 ؛ ومن الآية : 85 ، من نفس السورة .

(*) وقصد هنا المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول وقد ذكرنا ذلك ضمن موضوع الصراع مع

اليهود ص120 وما بعدها وكما جاء في سورة آل عمران الآية : 118-120 ، وسورة المائدة :

الآية : 151 ، وسورة الحشر الآية : 11 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق2/191 ؛ ، الطبري ، تاريخ ، 586/2 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق2/240 .

شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ⁽¹⁾ .

2- ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ...﴾ (2) .

3- ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ...﴾ (3) .

4- ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (4) .

وكلمة الأحزاب تعني فرقاً أو طوائف أو قبائل متحيزة على أمرٍ ما كما في سورة هود والرعد وفي سورة الأحزاب إشارة صريحة قصد بها قريش والقبائل المتحالفة معها لغزو المدينة⁽⁵⁾ .

والآيات المدنية التي ورد فيها الأحلاف والمواثيق والعهود والتي تشير إلى عصبية التحالف القبلي ضمناً وعن ضرورة حفظ هذه المواثيق والعهود وقدسيتها وقد جاء الكثير منها في القرآن ، منه قوله تعالى :

1- ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⇒ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ (6) .

2- ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ...﴾ (7) .

(1) سورة آل عمران ، الآية : 28 .

(2) سورة هود ، من الآية : 17 .

(3) سورة الرعد ، من الآية : 36 .

(4) سورة الأحزاب ، الآية : 22 .

(5) ابن كثير ، تفسيره ، 440/2 ؛ دروزة ، عصر النبي ، ص 167 .

(6) سورة الأنفال ، الآية : 55-56 .

(7) سورة التوبة ، من الآية : 7 .

ومن المعروف أن المعاهدات والأحلاف كانت لا تستمر إلا لمدة معينة وتنتهي بعد انتهاء أسبابها لكن هناك بعض الروايات تذكر أن بعض الأحلاف تستمر جيلاً بعد جيل ولا تنقض إلا بسبب أحداث جسيمة فتصبح بين القبائل المتحالفة صلة لاحمة متوازنة ، وعلى العموم نستطيع أن نقول إن عصبية التحالف القبلي ليست أصلية وإنما هي طارئة بخلاف عصبية الأقارب وذوي الأرحام وعصبية القبيلة فأنها أصيلة تستمد وجودها من المصلحة المتحدة الطبيعية بين القبيلة الواحدة الذين يكونون في الغالب ذوي أرحام وقربى وقد تباعدت بعض التباعد مع انتسابهم إلى الجد الأعلى للقبيلة ثم بين العائلة الواحدة أو العشيرة الواحدة أو البطن الواحد التي تجمعهم صلة الدم والرحم⁽¹⁾ ، وهناك أيضاً حلف فردي بين شخص حر ينضم إلى إحدى القبائل وتكون صلة ليست مؤقتة كالإجارة ، فالحليف يرث حليفه في الجاهلية وبداية الإسلام فقد كان له السدس من الإرث كما في قوله تعالى : ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ (2) .

حتى نسخت آيات الميراث ونقل من الإرث إلى الهبة : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ...﴾ (3) .

رابعاً- عصبية الولاء :-

عصبية الولاء نوعان مولى حلف أو مولى اصطناع ، وكان من عادات العرب أن يلتحق أحد أفراد القبيلة بشخص من قبيلة أخرى يكون أقوى منه فيتولاه فيصبح كأنه من ذوي رحمه وعليه المولاة له وحينئذ يكون على الملحق جميع تبعات عصبية الملحق به الخاصة والعامة (4) .

(1) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 61 .

(2) سورة النساء ، الآية : 33 .

(3) سورة الأنفال ، من الآية : 75 .

(4) جواد علي ، المفصل ، 366/4 .

وينتسب المولى إلى قبيلة مولاة ، لذلك فأنا نجد كتب الأنساب تؤكد على أن هذه النسبة المنسوب إليها الشخص الفلاني إلى القبيلة الفلانية من أنفسهم إذ كان من صلب القبيلة لا بالموالات ونجد في القائمة التي ذكرها ابن هشام⁽¹⁾ فيمن استشهد من المهاجرين والأنصار في معركة بدر ومعركة احد عدداً كبيراً من هؤلاء الحلفاء .

وقد جاء ذكر المولى في القرآن الكريم في أكثر من آية وبمعنى النصير أو الحليف كما في قوله تعالى : ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُ وَكَانَ يُدْعَى﴾ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ⇒ يَدْعُو لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْئَسَ الْمَوْلَى وَلَيْئَسَ الْعَشِيرُ لَا (2)

وقوله تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (3) .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ بِأَنْ أَلَّهِ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (4) .

﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (5) .

(1) السيرة ، 706/1-708 ، وقد أورد قائمة بأسماء الشهداء من الأنصار والمهاجرين في معركة بدر ؛ وينظر ، المصدر نفسه ، ق2/122-127 .

(2) سورة الحج ، الآية : 12-13 .

(3) سورة الحج ، من الآية : 78 .

(4) سورة محمد ، الآية : 11 ، ويأتي المولى بمعنى الأقارب من العصبية لأن المولى يصبح بمنزلة الأقارب ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 4/132 .

(5) سورة التحريم ، الآية : 4 ، والمقصود في هذه الآية زوجته حفصة وعائشة (رضي الله عنهما) ، فقد مالت قلوبهما إلى محبة ما كرهه رسول الله (ﷺ) من تحريمه لجاريته مارية القبطية لإرضاء حفصة فعاتبها (⇒) على ذلك التحالف بينهما ؛ الطبري ، تفسيره ، 28/161-162 .

والنوع الآخر من المولاة عندما يكون المولى من الرقيق أو أسير فتعتق رقبتة ويحرر فيصبح مولى لمعتقه وله الخيار في أن يختار معتقه سيداً له أو غيره وعليه واجب مساعدة معتقه والدفاع عنه⁽¹⁾ .

وقد يقوم صاحب الولاء (السيد) بتبني المولى ويتخذه ابناً ، وفي هذه الحالة يُطبقون ما يطبق بالنسب أي لا يجوز للمعتق أن يتزوج من زوجة متبناه إذا طلقها أو مات عنها ، مثال ذلك إن (زيد بن حارثة ، مولى رسول الله) أي عتيقه⁽²⁾ ، قام بتبنيه فكان يسمى زيد بن محمد وهذه الحالة كانت سائدة في المجتمع الجاهلي ومتأصلة عندهم ، فلما جاء الإسلام نهى عن عملية التبني وأمر بنسبتهم إلى آبائهم ، لأن ذلك اعدل وأقسط عند الله كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَذْغِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ ⇒ اذْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ... لا⁽³⁾ .

ولم تكن الموالاة مقتصرة على الأفراد ، بل كثيراً ما يلتحق بطن أو عائلة من قبيلة إلى قبيلة أخرى بل قد تلتحق قبيلة بقبيلة أخرى عن طريق الولاء فيكون أفرادها (موالي) للقبيلة الجديدة فيقع عليها تبعية ما يقع على القبيلة الملتحق بها من حرب ودماء وعقل ومصالح ، ومثال ذلك ما كان بين الاوس والخزرج واليهود فيبدو هنا أن الحلف بينهم أتخذ هذا المعنى ، فعند ملاقاته الرسول (ﷺ) رهط الخزرج أول مرة عند العقبة في مكة سألهم قائلاً : (أمن موالي اليهود قالوا نعم)⁽⁴⁾ فسؤال الرسول (ﷺ) ، وأجابتهم بنعم دلالة واضحة على ذلك .

خامساً - عصبية الجوار :-

(1) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 48 .

(2) البخاري ، صحيح ، 82/5 .

(3) سورة الأحزاب ، الآية : 4 ومن الآية : 5 من نفس السورة .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق 428/1 .

والجوار سنة من سنن العرب⁽¹⁾ ، وللجوار أهمية كبيرة لدى العرب قبل الإسلام وخاصة في المجتمع القبلي ، لأنه رمز الحماية والدعم لأولئك المخلوعين الذين طردتهم قبائلهم وإذا استجار شخص بشخص آخر أو قبيلة وقبل جاراً أو مستجيراً وجبت حمايته وحق على المستجار الدفاع عن مجيره⁽²⁾ ، لأن الاعتداء عليه يثير حفيظتهم كأنه اعتداء عليهم فإنهم كانوا يسارعون للذود عنه حتى الموت فإذا قتل المستجير قام حاميه ومجيره بدفع ديته إلى أهله⁽³⁾ .

وجارك هو المستجير بك والمجير هو الذي يمنعك ويجيرك وأجاره باللغة أنقذه من شيء أو ظلم يقع عليه⁽⁴⁾ ، والعرب يسمون جارههم هديهم وهذتهم حيث يحرم عليهم ما يحرم من الهدي أي القداسة⁽⁵⁾ ، لقد كان العرب يحترمون قانون الجوار وبالمقابل فإن على المستجير أن يراعي حرمة جاره وأن يلتزم بالقيم والأعراف السائدة ولا يسقط حقه في الجوار ويتم خلعه .

وقد كان للنساء حق الإجارة وتسمى المرأة التي تذهب بزوجها إلى قومها لتجيره بالسحوب⁽⁶⁾ .

ولم يكن كل شخص يقبل أن يجير شخص آخر وكذلك بالنسبة إلى القبيلة ، فالناس يعرفون أقدارهم وقواهم فلا يورطون أنفسهم فيما لا قبل لهم فيه ، لأنهم كانوا يروا من ذمة الجوار أمراً خيراً .

وحقوق المجار المترتبة على قيام الجوار وتتلخص في قول هانئ بن مسعود الشيباني سيد بني شيبان حين أجار النعمان بن المنذر : (قد لزمني ذمامك ، وأنا

(1) جواد علي ، المفصل ، 360/4 .

(2) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 40 .

(3) يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك ، ص 94 .

(4) الزبيدي ، تاج العروس ، 478/10 .

(5) يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك ، ص 94 .

(6) ابن حبيب ، المحبر ، ص 433-434 .

مانعك مما امنع منه نفسي وأهلي وولدي ، ما بقي من عشيرتي
الأدنين (رجل) (1) .

والرسول (ﷺ) استجار بزعيم الاحابيش المطعم بن جبير بعد عودته من
الطائف مخذولاً ، وبعد وفاة عمه أبي طالب وتخلي عنه عمه أبو لهب لدخول مكة
وتبليغ دعوته (2) .

ويذكر عن ذلك ابن هشام (3) : لما انصرف رسول الله (ﷺ) عن أهل الطائف
ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه من تصديقه ونصرته صار إلى حراء ثم بعث إلى
الاخنس بن شريق ليجيره ، فقال : أنا حليف والحليف لا يجير ، فبعث إلى سهيل بن
عمرو فقال : إن بني عامر لا تجير على بني كعب ، ثم بعث بعد ذلك إلى مطعم بن
عدي بن نوفل بن عبد مناف فأجابه إلى ذلك ، ثم تسلم المطعم وأهل بيته ، وخرجوا
حتى أتوا المسجد ثم بعث إلى رسول الله (ﷺ) أن ادخل فدخل رسول الله (ﷺ) فطاف
بالببيت صلى عنده ثم انصرف إلى منزله دون أن يتعرض له أحد (4) .

وقد وردت في القرآن الكريم آيات عديدة تذكر الإجارة والجوار كما جاء في
قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ
حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ
مَأْمَنَهُ...﴾ (5) .

واشتهر أهل يثرب بالجوار إذ عرف بنو مرة بن مالك أحد بطون الاوس
بالجعادرة وذلك لأنهم كانوا يقولون للرجل إذا جاورهم (جعد - حيث شئت فأنت
آمن) (6) ، أي اذهب حيث شئت ، وكذلك بنو غنم بن عوف وهم احد بطون الخزرج

(1) الاصفهاني ، الأغاني ، 126/2 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق 381/1 .

(3) المصدر نفسه ، ق 380/1 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق 380/1 .

(5) سورة التوبة ، من الآية : 6 .

(6) ابن دريد ، الاشتقاق ، 437/2 .

عرفوا بالقواقل (لأنهم كانوا إذا استجارهم رجل دفعوا له سهماً فقالوا له . قوقل بيثرب حيث شئت) (1) .

وكذلك الإجارة بالنسبة إلى القبائل والعشائر والبطون ، ويمكن فسخ الجوار وعقد غيره فبنو معلا في يثرب قد فسخوا جوارهم مع بني بياضة وعقدوا جواراً آخر مع زريق وبنو زاعوراء أيضاً تمتعوا بجوار عبد الاشهل وكان يسمح لأفراد هاتين القبيلتين بالزواج فيما بينهم (2) .

وكان من الأسباب لعقد الجوار في يثرب ، هو شيوع استخدام الاطم(*) لأسباب دفاعية ، وكان من الضروري استخدام عدد كبير من الرجال لبنائها والإشراف عليها فكان لابد من انضمام جماعات صغيرة إلى جماعات أخرى لهذه الأغراض ، وكذلك للظروف الجغرافية والمادية تأثيرها القوي في عقد الجوار (3) .

وعند استعداد المشركين من قريش للخروج لحماية قافلته من النبي (ﷺ) في معركة بدر ، وكان بين كنانة وقريش دماء فخشوا إن خرجوا باغتتهم كنانة من خلفهم فترأى الشيطان لهم بصورة سراقاة بن مالك وكان من زعماء كنانة فقال لهم : (أنا جاركم من كنانة فلن تروا منها ما تكرهون) (4) ، فخرجوا فكانت واقعة بدر الكبرى .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحادثة : ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ (5) .

(1) المصدر نفسه ، 456/2 .

(2) مونتجومري/وات ، محمد في المدينة ، ص 262 .

(*) سيأتي تعريفها في الصفحات التالية .

(3) مونتجومري/وات ، محمد في المدينة ، ص 262 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق 1/610-612 .

(5) سورة الأنفال ، من الآية : 48 .

وقد وردت في القرآن الكريم ثلاث آيات أخرى تحتوي معنى الإجارة ومشتقاتها موضحة على مقدرته (⇒) في الإجارة مصورة عظمة إجارته التي لا تضاهيها إجارة كما في قوله تعالى :

- 1- «أَقُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»⁽¹⁾.
- 2- «أَقُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ»⁽²⁾.
- 3- «أَقُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً»⁽³⁾.

سادساً- عصبية التقاليد :-

كان العرب يتعصبون لتقاليدهم وموروثهم من العادات والتقاليد تعصباً أعمى ويرون ذلك فضيلة ليس بعدها فضيلة وجزءاً مهماً من حياة المجتمع ، حتى ولو أدت إلى الحرب وإراقة الدماء والمواقف المحرجة المهلكة ، وقد بلغ من قوة هذه العصبية ورسوخها أنها أصبحت عندهم ديناً ويرون أن الأخذ بها من أمر الله⁽⁴⁾ ، كما جاء في قوله تعالى : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ»⁽⁵⁾ .

«وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا...»⁽⁶⁾ .

(1) سورة المؤمنون ، الآية : 88 .

(2) سورة الملك ، الآية : 28 .

(3) سورة الجن ، الآية : 22 .

(4) دروزة ، عصر النبي، ص 178 .

(5) سورة البقرة ، الآية : 170 .

(6) سورة الأعراف ، من الآية : 28 ، وينظر الطبري ، تفسيره ، 379/12 .

وهذه الآيات توضح موقف المشركين من قريش من الدعوة الإسلامية والتنديد بمواقفهم المعادية وتصور شدة تمسكهم بهذه التقاليد كما في قوله تعالى :

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ لَا (1) .

فعبسية التقاليد هي التي منعت عم الرسول (ﷺ) أبا طالب من إعلان إسلامه على الرغم من محبته للرسول ودفاعه عنه (2) ، وما نجده في المجتمع المكي نجد صده في مجتمع المدينة ، فالتقاليد واحدة والتعصب الأعمى لها واحد .

وكما نعلم أن من تقاليد المجتمع الجاهلي هو تحريم زواج زوجة الابن المتبنى سواء بعد طلاقه إياها أو وفاته ، حيث كان يعامل المتبنى كالابن بالنسب ، وكان إلغاء هذا التقليد أمراً صعباً وعسيراً يحتاج إلى صبر وجرأة حتى حسم هذا الموضوع الوحي على لسان رسوله الكريم ممهداً لهذا الحدث ، كما في قوله تعالى :

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضُلَالاً مُبِيناً (3) .

فعند خطبة الرسول (ﷺ) لزيد بن حارثة متبناه زينب بنت جحش (*) ، رفضت وتمنعت وقالت لا أرضاه لنفسي وأنا أيم قريش (4) .

(1) سورة الأنعام ، الآية : 148 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق/147 .

(3) سورة الأحزاب ، الآية : 36 .

(*) وهي زينب بنت جحش بن رثاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة وهي بنت عمه النبي (ﷺ) ، أمها اميمة بنت عبد المطلب ، وهي أول من مات من أزواجه بعد وفاته في خلافة عمر (رضي الله عنه) . ينظر: ابن سعد ، الطبقات ، 101/8-103 ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، ص136 ؛ القرمانى ، أبي العباس احمد بن يوسف بن احمد الدمشقي ، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، مكتبة المتنبى ، (القاهرة - د.ت) ، ص88 .

(4) ابن سعد ، الطبقات ، 101/8 .

فنزلت هذه الآية تحت على ضرورة الامتثال لأمر الله ورسوله ، لأن أمر الله يصدر عن حكمة لا يعلمها إلا الله ، فأراد (⇒) هذه الزيجة وما أعقبها من أحداث لكسر هذه التقاليد العمياء وان تكون سنة يُستن بها الناس وهو تحريم التبني وبشرعية الزواج من زوجات ادعيائهم بالتبني كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (1) .

فكان زواج الرسول الكريم (ﷺ) بأمر الله ومشيتته فجاءت هذه الآية لتثبيت فؤاد الرسول (ﷺ) للوقوف بوجه هذه التقاليد المغلوطة في قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (2) .

والحدث الآخر هو قتال سرية عبد الله بن جحش في الأشهر الحرم ، عند مهاجمتها قافلة قريش حيث كانت مهمتها الاستطلاع كما أمر رسول الله (ﷺ) ، وقد استنكر المسلمون في المدينة ذلك وقد انتهزت قريش هذه الفرصة في شن حرب إعلامية ضد الرسول والمسلمين في المدينة بأنهم ينتهكون حرمة الأشهر الحرم بالقتال (3) ، مع قدسيتها عند العرب قاطبة .

فنزل الوحي مجيباً عن هذا السؤال بقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ

(1) سورة الأحزاب ، الآية : 37 .

(2) سورة الأحزاب ، الآية : 40 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق1/601-602 ؛ الطبري ، تاريخ ، 410/2-416 .

وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ
اسْتَطَاعُوا ... لا (1) .

وقد وصف (⇒) المجاهدين في هذه السرية بقوله تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ
يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» لا (2) .

الفصل الثاني العناصر السكانية في مجتمع المدينة القبلية والدينية

1- اليهود :-

كان اليهود عند هجرة الرسول (ﷺ) جاليات كبيرة العدد متعددة الفروع تصل
إلى أكثر من عشرين بطناً كما ذكر السمهودي⁽³⁾ ، منتشرة في أماكن كثيرة من يثرب
، والطريق المؤدية إلى الشام .

(1) سورة البقرة ، من الآية : 217 .

(2) سورة البقرة ، الآية : 218 .

(3) وفاء الوفا ، 118-112/1 ، ومن هذه الفروع والبطون اليهودية بنو القصيص ، وبنو غصة ، وبن
مريد ، وبنو معاوية ، وبنو ماسكة ، وبنو محمم (محممر) ، وبنو زاعورا ، وبنو عوف ، وبنو هذل
(بهذل) ، وبنو زيد اللات ، وبنو حجر ، وبنو ثعلبة ، وبنو الشطيبة ، وبنو عكرمة ، وبنو مراية .

وكانت القبائل اليهودية الرئيسية التي تتركز في يثرب هم ، بنو قينقاع ، والنضير ، وقريظة⁽¹⁾ ، وكانوا يعيشون حياة التكتل والأحياء الخاصة ، بينما كانت البطون الصغيرة منهم منتشرة إلى جوارهم أو جوار البطون العربية في يثرب ، وقد أمدتنا السور المدنية بمعلومات وافية عن هذه الجماعات اليهودية ، وذلك بسبب موقفها المعادي للدعوة الإسلامية بعد هجرة الرسول (ﷺ) إلى المدينة وما كان بعد ذلك من احتكاك وتصادم بين الطرفين ، وقد وجه القرآن الكريم الخطاب لليهود بتعبير (بنو إسرائيل) وقصد هنا النسب والديانة وهو لفظ يعني في العبرانية بني عبد الله أو صفوة الله ، وهي مركبة من أسرا بمعنى عبد أو صفوة ومن أيل وهو الله⁽²⁾ .

وقد خاطبهم القرآن وسماهم أيضاً اليهود نسبة إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم ، الذي استقر في ذريته الملك⁽³⁾ ، وقيل أن التسمية تعني اليهودية أي المودة أو التهود وهو التوبة⁽⁴⁾ ، وأراء أخرى هذه أهمها .

وخاطبهم القرآن أيضاً بأهل الكتاب وهو التوراة التي أنزلت على موسى بن عمران (ﷺ) كما في قوله تعالى : «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ...»⁽⁵⁾ ، وهذه التسمية تشمل أهل الإنجيل النصارى أيضاً⁽⁶⁾ .

كما نعى القرآن عليهم ملك اليهود الأقدمين مع موسى والنبيين

(عليهم السلام) من بعده ، وما كان منهم من تعجيز وإحراج وكفر وتكذيب وغدر ونقض للشرائع وتحريف الكلام عن مواضعه⁽⁷⁾ ، وقد وردت الكثير من الآيات

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق1/501 ، ق2/214 ؛ الطبري ، تفسيره ، 206/10 .

(2) طنطاوي ، د. محمد سعيد ، بنو إسرائيل في القرآن ، ط2 ، (بيروت-1973) ، ج1 ، ص6.

(3) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 194/1 .

(4) اسود ، عبد الرزاق محمود ، المدخل إلى دراسة ، الأديان والمذاهب ، ط1 ، دار العربية للموسوعات ،

(بيروت-1981) ، ص141 .

(5) سورة الأنعام ، من الآية : 154 ؛ وينظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، 147/2 .

(6) الطبري ، تفسيره ، 308/3 .

(7) دروزة ، عصر النبي، ص105 .

القرآنية توضح تطرفهم في مختلف شؤون حياتهم ، فمن شدة تطرفهم جعلوا أنفسهم شعب الله المختار وأحباءه⁽¹⁾ ، وهم حين يضعون أنفسهم في هذه المكانة ليصرفوا الأنظار عن فسادهم وذنوبهم ، كما جاء في قوله تعالى :

1- «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ»⁽²⁾ .

وكذلك تطرفهم في ادعائهم بأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات حيث يذكر علماء التفسير : (إن اليهود يقولون إن عمر هذه الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب بكل ألف سنة يوماً من النار وإنما هي سبعة أيام معدودة)⁽³⁾ ، وأربعين يوماً وهي مدة عبادتهم العجل ، كما في قوله تعالى :

2- «وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ»⁽⁴⁾ .

وعن كفرهم ومجانبتهم الحق وقتلهم الأنبياء يقول (⇒) :

3- «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»⁽⁵⁾ .

وقد لعنهم الله (⇒) على لسان أنبيائهم كما في قوله تعالى :

(1) الكتاب المقدس ، (العهد القديم) ، دار المشرق ، (بيروت-1983م) ، سفر صموئيل الأول ، الإصحاح الخامس عشر ، الفقرة (5) ، وما بعدها .

(2) سورة المائدة ، الآية : 18 .

(3) الطبري ، تفسيره ، 382/1 ؛ الزمخشري ، الكشاف ، 158/1 ، ابن كثير ، تفسيره ، 118/1 .

(4) سورة البقرة ، الآية : 80 .

(5) سورة آل عمران ، الآية : 21 .

4- «الْعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ»⁽¹⁾ . وقد تكررت لعنتهم في القرآن كما في قوله تعالى :

5- «فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً...»⁽²⁾ .

وقد وجه (⇒) خطابه إلى بني إسرائيل أو اليهود القدماء ومن بعدهم بسياق واحد وبصيغة المخاطب القريب مما يوضح الصلة اللاحمة النسبية بين هؤلاء وأولئك وربط ما بدا من أخلاق المعاصرين ومواقفهم هو امتداد لأخلاق ومواقف الأقدمين فهي تصور عن جبهة وخصائص واحدة⁽³⁾ .

6- «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ⇒ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ»⁽⁴⁾ .

7- «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَتَّبِعُوا رِيسِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي فَالْعَالَمِينَ ⇒ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ»⁽⁵⁾ .

(1) سورة المائدة ، الآية : 78 .

(2) سورة المائدة ، من الآية : 13 .

(3) دروزة ، عصر النبي ، ص 105 .

(4) سورة البقرة ، الآية : 40-41 ، وقد ورد ذكر بني إسرائيل في (43) آية من القرآن الكريم ومنها (18) آية مدنية ، ينظر محمد فؤاد ، المعجم المفهرس ، ص 41 .

(5) سورة البقرة ، الآية : 122-123 ؛ وينظر أيضاً سورة البقرة ، الآية : 47-48 .

وقد جاء عند المفسرين أن التفضيل الذي يقصده القرآن ليس تفضيلهم على المؤمنين العاملين بشريعة الله بل كان تفضيلهم على أبناء عصرهم ، وخاصة فرعون وحاشيته⁽¹⁾ .

ولم ترد إشارة صريحة في القرآن الكريم عن اصل هؤلاء وعن كيفية مجيئهم إلى الحجاز ، ولكن توجيه الخطاب إلى يهود يثرب بتعبير (بني إسرائيل) بهذا الإطلاق والشمول دلالة على الصلة الوثيقة التي يجعلها القرآن بين القدماء والمعاصرين منهم مما يثبت بان اليهود في الحجاز هم طارئون⁽²⁾ ، وإنهم إسرائيليون وأنهم ليسوا قبائل عربية اعتنقت اليهودية كما يذكر بعض مؤرخي العرب من أن بني النضير فخذ من جذام وأنهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فتسموا به ، وكذلك بنو قريظة⁽³⁾ .

بالإضافة إلى أن النسابين لم يذكروا هذه القبائل اليهودية في المدينة أو غيرها من مدن الحجاز ضمن الأنساب العربية⁽⁴⁾ ، كما أن اليهود أنفسهم لم يحاولوا نسبة أنفسهم إلى القبائل العربية ، بل حرصوا على نسبة أنفسهم إلى بني إسرائيل ، وكان بنو قينقاع يدعون أنهم من ذرية يوسف الصديق⁽⁵⁾ ، وهذا مع الاعتراف بأنهم بالأساس احد الموجات السامية الذين هاجروا الجزيرة العربية (العبرانيون) وهم على الوثنية ولكنهم حين عادوا إلى المدينة كانوا يحملون الديانة اليهودية الموحدة⁽⁶⁾ .

(1) الطبري ، تفسيره ، 265/1 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 88/1 ؛ طبارة ، عفيف عبد الفتاح ، اليهود في

القرآن ، ط5 ، دار العلم للملايين ، (بيروت-1977) ، ص23 .

(2) دروزة ، عصر النبي ، ص107 .

(3) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ، 36/2 .

(4) ابن الكلبي، جمهرة النسب ، مراجعة الكتاب من ص1- إلى نهاية الكتاب ؛ الاصفهاني ، أبي فرج علي

بن الحسين (ت356هـ) ، الأغاني ، المؤسسة المصرية العامة للنشر ، (مصر- د.ت) ، 116/3 ،

الذي أكد على عدم ذكر النسابين العرب القبائل اليهودية في الحجاز والمدينة ضمن الأنساب العربية .

(5) السمهودي ، وفاء الوفا ، 115/1 .

(6) سوسة ، احمد ، العرب واليهود في التاريخ ، ط2 ، دار العربي ، (مصر-1972) ، المقدمة ، من

خ-خ خ .

واختلفت الروايات عن كيفية وصولهم إلى يثرب والتي تأثرت معظمها بالروايات اليهودية وإدعاءاتهم ، فيذكر أن موسى (ﷺ) كان قد جهز جيشاً كبيراً وأمرهم بقتال العماليق(*) والقضاء عليهم جميعاً في الحجاز ، وقد فعلوا ذلك ولكنهم ابقوا على ابن ملك العماليق وكان غلاماً جميلاً فرحموه ورجعوا إلى بلاد الشام بعد وفاة موسى (ﷺ) ، وقد منعهم قومهم في دخول بلاد الشام لأنهم عصوا نبيهم بإبقائهم على هذا الغلام فرجعوا إلى مواطن العماليق الذين أبادوهم بيثرب ، واستوطنوها(1) .

ويضيف ياقوت الحموي(2) : أن بعض اليهود من بني الكاهن بن هارون كانوا قد لحقوا بهم ، فكانت لهم الأموال والضياع بالسافلة أسفل المدينة ، ثم ظهر بعد ذلك الروم على بلاد الشام فقتلوا من بني إسرائيل خلقاً كثيراً ، فخرج بنو قريظة والنضير وهذل هاربين من الشام يريدون الحجاز فسكنوا هناك مع إخوانهم ممن سبقهم إلى يثرب .

وقد استحوذ اليهود على معظم الأراضي الخصبة في يثرب وأصبحوا ذوي أموال طائلة ومزارع وبساتين ، وذلك لبراعتهم بالزراعة والعمران ، وانحذارهم من بلاد الشام التي كانت موطناً للزراعة والعمران(3) ، لهذا نراهم قد ابتنوا الاطام (الحصون) ، وسيلة لحماية أموالهم وتقوية مركزهم وإقرار هيبتهم في نفوس

(*) العماليق : يذكر ابن إسحاق : أرسل الله هوداً إلى عاد ومنازلهم الاحقاف (الرمل فيما بين عمان إلى حضرموت باليمن ، وكانوا قد فشوا في الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم وكانوا يعبدون ثلاثة أصنام فلما عصوا نبيهم وكذبوه وعتوا على أمر الله فامسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدوا ، فوجهوا إلى مكة رجال يستسقون لهم في الحرم طالبين من الله الفرج ، ولم تزل العرب تعظم موضع البيت وأهله العماليق وسيدهم معاوية بن بكر ، وإنما سموا العماليق لأن أباهم عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح . ينظر: الطبري ، تفسيره ، 217/8-218 ؛ ابن منظور ، لسان العرب ، 271/10 .

(1) الاصفهاني ، الاغانى ، 116/3 ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 84/5 .

(2) معجم البلدان ، 84/5 .

(3) فيليب حتي ، تاريخ العرب ، 146/1-147 .

العرب حيث يذكر السمهودي⁽¹⁾ : أن آطام اليهود في يثرب بلغ تسعة وخمسين إطمًا.

وقد صور لنا القرآن الكريم قوة ومنعة اليهود واطامهم ، ومدى غناهم وكثرة أموالهم ظانين أن حصونهم تمنعهم من طالبيهم ، كما جاء في قوله تعالى :

1- «وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ⇒ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (2) .

2- «وَأَنَّ اللَّهَ : هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (3) .

3- «وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَفَاءَ بِأَمْوَالِهِمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ (4) ، لَأَنَّ : «مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ⇒ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⇒ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي

(1) وفاء الوفا ، 116/1 ؛ دروزة ، ص 113-114 .

(2) سورة الأحزاب ، الآية : 26-27 ؛ وصياصيهم حصونهم والمعنيون هنا يهود بنو قريظة وكانوا يسكنون المدينة وأربابها ؛ الطبري ، تفسيره ، 149/21 .

(3) سورة الحشر ، الآية : 2 .

(4) وعن أموال اليهود التي غنمها المسلمون من بنو النضير ؛ ينظر اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، 26/2 .

الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ... لا (1)

4- وقد وصفهم القرآن بالجبن وعدم الجرأة في قتال المسلمين وجهاً لوجه فهم : «لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ... لا (2)

ولم يكن كل اليهود زراع ، فقد برعوا أيضاً في التجارة ، وبرعوا في الصناعة وخاصة السلاح منها والحدادة ، والصياغة (3) .

وقد مارس يهود المدينة الربا بشكل واسع ، ومما ساعدهم على ذلك كون مجتمع المدينة زراعياً يحتاج فيه المزارعون إلى المال حتى يحين الحصاد .

وقد جنى اليهود عن هذا الطريق أموالاً كثيرة بالباطل ، كما في قوله تعالى : «افْيَظْلَمِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً → وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ بِالْبَاطِلِ وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً... لا (4)

أما لغة اليهود في يثرب ، على الرغم من كونها عبرانية ومن أصول سامية إلا أنهم كانوا يتكلمون العربية تشوبها الرطانة العبرية (5) .

وبسبب اندماجهم مع العرب في نمط حياتهم الاجتماعية والسياسية وصنفوا أنفسهم أيضاً إلى قبائل وبطون شأنهم شأن بقية شعوب شبه الجزيرة العربية التي

(1) سورة الحشر ، الآية : 5 ومن الآية : 7 .

(2) سورة الحشر ، من الآية : 14 .

(3) ينظر الطبري ، تاريخ ، 481/2 ؛ يوجد إشارة من خلال غنائم المسلمين عند إجلاء يهود بني قينقاع ،

حيث غنم المسلمون أموالهم وسلاحهم وآلة صياغتهم ؛ الحوفي ، احمد محمد ، الحياة العربية في

الشعر الجاهلي ، مكتبة النهضة ، (مصر-1962) ، ص136 ؛ سيديو ، تأريخ العرب ، ص29 .

(4) سورة النساء ، الآية : 160-161 .

(5) المقرئ ، إمتاع الأسماع ، 187/1 .

اتخذت النظام القبلي أساساً لحياتهم الاجتماعية⁽¹⁾ ، وقد دخل هؤلاء في محالفات مع الاوس والخزرج الوثنيين على الرغم من كونهم أصحاب كتاب ، فكان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج ، أما بنو قريظة فكانوا حلفاء الاوس ، فإذا نشبت الحرب بين الاوس والخزرج قاتل اليهود معهم كل مع حليفه ، وقد يقتل اليهودي أخيه اليهودي من الفريق الآخر ، ويخرجونهم من بيوتهم وينهبون دورهم وإن كان ذلك محرم في ملتهم ، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الاسارى من الفريق الغالب عملاً بحكم التوراة⁽²⁾ ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ⇒ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ يَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾⁽³⁾ .

ونستطيع أن نلخص هذه المحالفات من خلال دستور أو صحيفة المدينة حيث الحق رسول الله (ﷺ) بطون اليهود بالبطون العربية المحالفة لها من الاوس والخزرج⁽⁴⁾ .

وقد ظلت هذه المحالفات سارية إلى ما بعد الهجرة⁽⁵⁾ ، وجاء انعكاسها في في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ

(1) جواد علي ، المفصل ، 630/1 .

(2) ابن كثير ، تفسيره ، 120/1 .

(3) سورة البقرة ، الآية : 84-85 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق1/501-504 .

(5) دروزة ، عصر النبي، ص110 .

قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ⁽¹⁾ .

حيث تشير هذه الآية إلى العلاقة التي كانت قائمة بين عبد الله بن أبي بن سلول وبين بني النضير ، فقد أرسل زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي وديعة ومالك بن نوفل سرّاً إلى حلفائهم من بني النضير حين نزل بهم حكم رسول الله (ﷺ) بعد خيانتهم ونقضهم للعهد طالبين منهم أن يثبتوا ويتمنعوا وإنهم سوف يعينوهم وفقاً للحلف الذي بينهم⁽²⁾ ، وكان اليهود يشيعون بين أهل المدينة وغيرها من المدن عن أنفسهم علماً واسعاً في الأديان والشرائع وأخبار الأمم وسنن الكون⁽³⁾ ، وكان لهم معابد تدعى بيت المدراس^(*) ، وأحبارهم وكان لأحبارهم وربانييهم اثر كبير فيهم لأنهم معلميههم وقضائهم كما هو واضح من الآيات القرآنية التالية :

1- «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ
مِمَّا يَكْسِبُونَ⁽⁴⁾ .

2- «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا
مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ
كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ
اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ⁽⁵⁾ .

(1) سورة الحشر ، من الآية : 11 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 46-45/28 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق1/514 ؛ دروزة ، عصر النبي ، ص108 .

(*) وهي مواضع يتدارسون فيها رجال الدين من اليهود أحكام شريعتهم وأيامهم الماضية وأخبار الرسل

والأنبياء وما جاء في التوراة ، واللفظة مأخوذة من العبرية ، أي درس نصوص التوراة وشرحها

وأيضاح غامضها . ينظر: جواد علي ، المفصل ، 6/55 .

(4) سورة البقرة ، الآية : 79 .

(5) سورة البقرة ، الآية : 89 .

وهنا وصف لليهود وقصد بالكتاب هو القرآن الكريم الذي انزل على محمد
(ﷺ) مصداقاً لما معهم من التوراة ، حيث كان الاوس والخزرج قبل مجيء الإسلام
كفاراً ، فكان اليهود يبشرون برسول يتبعونه ويقاتلون معه أهل الكفر قتال عاد وأرم
وقصدوا بذلك الرسول (ﷺ) . فلما جاء كفروا به وجحدوه⁽¹⁾.

وكان أحبارهم وربانيهم لا يقومون بواجباتهم في منع العامة عن ارتكاب الآثام
والمنكرات ، بل ومنهم من كان يتخذ منصبه الديني وسيلة لجمع المال واكتناز
الذهب والفضة ، كما توضحه هذه الآيات :

1- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ
بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا
وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ
وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ (2) .

2- ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَأَكْلِهِمُ السَّخْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْلَا
يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ
وَأَكْلِهِمُ السَّخْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (3) .

3- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ
وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصْذَوْنَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا
يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (4) .

أما موقفهم من الدعوة الإسلامية ، فلم تكن علاقة اليهود مع المسلمين سيئة
في الأيام الأولى من مجيء الرسول إلى يثرب .

(1) ابن كثير ، تفسيره ، 124/1 .

(2) سورة المائدة ، من الآية : 44 ؛ والرَّبَّانِيُّونَ : وهم العلماء العباد ، والأحبار هم العلماء بما استودعوا
من كتاب الله ؛ ينظر ابن كثير ، تفسيره ، 60/2 .

(3) سورة المائدة ، الآية : 62-63 ، والسحت : أي الحرام وهو الرشوة ؛ ينظر ابن كثير ، تفسيره ،
60/2 .

(4) سورة التوبة ، الآية : 34 .

حيث رأى اليهود أن الإسلام دين اعترف بالأنبياء وأنه دين توحيد وأنه من جملة أحكامه قريب من أحكام ديانتهم وقواعدهم وأنه يناهض الأوثان كما في قوله تعالى : «أَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (1) .

«إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ ...» (2) .

وقد أشاد بفضل بني إسرائيل وبتفوقهم على غيرهم بظهور الأنبياء من بينهم ثم أن قبلتهم إلى بيت المقدس ، وقد تسامح الإسلام معهم وأباح للمسلمين طعام أهل الكتاب كما في قوله تعالى : «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ...» (3) ، وخاصة أن الإسلام اعترف بأبوة النبي إبراهيم (ﷺ) للعرب وجعل سنته سنة لهم ، وقد تسامح الإسلام مع اليهود وحفظ ذممهم ، ولذلك عقدوا مع المسلمين عقد سياسي ووقفوا معه موقف ودي (وحيادي) ، هو إعلان صحيفة المدينة (4) ، وكان الرسول (ﷺ) وبعض الصحابة يترددون إلى بيت مدراسهم لمناقشتهم في بعض أمور الدين وكذلك بعض اليهود أيضاً كانوا يراجعون الرسول (ﷺ) ويحتكمون إليه ، وذكر ابن هشام (5) عن ابن إسحاق : أن اليهود حين اجتمعوا في بيت المدراس بسبب زنى رجل منهم بأمرأة في يهود قد

(1) سورة البقرة ، الآية : 163 .

(2) سورة النساء ، من الآية : 163 .

(3) سورة المائدة ، من الآية : 5 .

(4) السهيلي ، الروض الأنف ، 26/2 .

(5) السيرة ، ق1/565-566 .

أحصنت ، ارسلوهما إلى رسول الله (ﷺ) ليروا حكمه فيها ويمتحنوه فان حكم (بالتجبيه) وهي الجلد ، فهو ملك فيصدقوه ولا يخشوه ، وان حكم عليهم بالرجم فأنه نبي فعليهم أن يحذروه ويكذبوه ، فلما أتوه وسألوه ، ذهب إلى بيت مدراسهم وسأل أحبارهم أن يأتوا بالتوراة ويتلوها ، فتلاها حبرٌ لهم وقد أخفى بيده آية الرجم فضرب عبد الله بن سلام على يده ، ثم قال : هذه يا نبي الله آية الرجم وسألهم عن سبب عدم تحاكمهم إلى التوراة وفيها حكم الزنى بالرجم فقالوا : انه زنى منهم رجل من آل الملك فمنعهم الملك من الرجم ، وزنى بعد ذلك رجل من عامة الناس فأرادوا أن يرحموه فأعترض البعض ، فقرروا إماتة حكم الرجم وعدم العمل به وقرروا العمل بالتجبيه⁽¹⁾ ، فأمر رسول الله (ﷺ) برجمهما عند باب المسجد ، وقال : (فأنا أول من أحيا أمر الله وكتابه وعمل به)⁽²⁾ ، كما في قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً...»⁽³⁾ .

ولما رأى اليهود دخول أهل يثرب في الإسلام أفواجا ودعوة المسلمين اليهود إلى الدخول فيه ، وبعد تحويل القبلة وتحريم الربا : رأى هؤلاء أن استمرار انتشار الإسلام سيكون خطراً على عقيدتهم التي ورثوها وان النبوة ابتدأت وانتهت في بني إسرائيل⁽⁴⁾ .

وقد صور لنا القرآن الكريم جدل اليهود وعنادهم مع الرسول الكريم (ﷺ) كما في قوله تعالى :-

(1) المصدر نفسه ، ق/566 .

(2) المصدر نفسه ، ق/566 .

(3) سورة المائدة ، من الآية : 41 .

(4) ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد ، 3/65 ؛ جواد علي ، المفصل ، 6/545 .

1- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ...﴾ (1) .

2- ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ...﴾ (2) .

3- ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنْتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ...﴾ (3) .

ثم بدأت بعد ذلك مرحلة جديدة من الصراع والدس على الإسلام والمسلمين والتآمر عليهم فكان بعد ذلك الصدام المباشر بين الطرفين (*) .

لذلك فإن القرآن الكريم قد حذر المسلمين والرسول (ﷺ) منهم ومن مولاتهم

ومما يضرهم اليهود للمسلمين من عذر وبغضاء . كما في قوله تعالى :-

1- ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ...﴾ (4) .

2- ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِيْطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ⇒ هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⇒ إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا

(1) سورة البقرة ، من الآية : 91 .

(2) سورة البقرة ، من الآية : 120 .

(3) سورة النساء ، من الآية : 46 .

(*) ينظر موضوع الصراع مع اليهود : الحوار الفكري والمواجهة العسكرية ، ص 117-124 .

(4) سورة البقرة ، من الآية : 109 .

بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً
إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (1) .

3- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا
الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (2) .

4- «وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ
يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا
يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ... (3) .

ولكن على الرغم من ذلك كان من بين اليهود أفراد آمنوا بالنبي محمد (ﷺ)
أيماناً صادقاً لم تشبه أي مصالح دنيوية وشخصية ، ومنهم عبد الله بن سلام وكان
حبراً عالماً وقصة إسلامه تصور العقلية اليهودية وتجسد أخلاقهم (4) ، وكذلك إسلام
مخيرق وكان حبراً وعالماً وقد أسلم وقاتل مع المسلمين في معركة احد واستشهد
وهو يقاتل المشركين وكان غنياً فعهد بأمواله إلى الرسول (ﷺ) (5) ، وكيامين بن
يامين وميمون بن يامن الحبر (6) ، وقد صور القرآن الكريم إسلام هؤلاء كما في قوله
تعالى : «الْيَسُوءَا سَوَاءٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ
يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ➔
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ
مِنْ الصَّالِحِينَ (7) .

(1) سورة آل عمران ، الآية : 118-120 ، والمقصود هنا اليهود ؛ ينظر دروزة ، عصر النبي، ص 112 .

(2) سورة المائدة ، الآية : 51 .

(3) سورة آل عمران ، من الآية : 75 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق 516-517 .

(5) المصدر نفسه ، ق 518/1 .

(6) ابن حجر ، الإصابة ، 49/3 ، 447/3 .

(7) سورة آل عمران ، الآية : 113-114 .

وكان إلى جانب هؤلاء اليهود الوافدين من خارج الجزيرة العربية هناك يهود من العرب اعتنقوا اليهودية من حمير وكنانة⁽¹⁾ ، وبني الحارث ، وغسان⁽²⁾ ، وبلى ، وقليل من الأوس والخزرج⁽³⁾ ، لأن اليهودية ديانة يكتنفها التعقيد لا تلائم روحية العرب وإنهم عنصريون يدعون أنهم جنس أرقى من بقية البشر وإنهم شعب الله المختار .

وتهديدهم لعرب يثرب بظهور نبي جديد من بني إسرائيل يقاتلون معه العرب فتكون السيادة لهم ، فكانت كل هذه الأسباب غير مشجعة على اعتناق اليهودية ويذكر الطبري⁽⁴⁾ ، مثلاً : أن المرأة التي كانت قليلة الولد تنذر أن عاش لها ولد تهوده .

ويذكر أن كعب بن الأشرف من طيء ، من بني نبهان أتى أبوه المدينة بعد أن أصاب دماً فيهم ، فنزل على بني النضير فشرف فيهم ، فتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق فولد له كعب بن سعد بن أسود بن الأشرف⁽⁵⁾ ، وكان شاس بن قيس بن عبادة بن زهير من أشراف الأوس في الجاهلية وقد تهود وكان رأساً فيهم⁽⁶⁾ .

2- الأوس والخزرج (الأنصار) :-

تتألف القبائل العربية التي كانت تسكن يثرب بصورة رئيسة من الأوس والخزرج وهم (ولد ثعلبة بن عمرو ومزيقاء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف ابن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، فولد ثعلبة بن عمرو ، حارثة فولد حارثة بن ثعلبة : الأوس والخزرج ، وأمهما قبله بنت الأرقم بن عمرو

(1) ابن إسحاق ، السيرة ، 359/2 ؛ السمهودي ، وفاء الوفا ، 279/1-280 .

(2) ابن قتيبة ، المعارف ، ص 621 .

(3) ابن إسحاق ، السيرة ، 359/2 .

(4) تفسيره ، 14/3 .

(5) ابن الكلبي ، جمهرة النسب ، ص 636-637 ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، ص 49 .

(6) ابن الكلبي ، جمهرة النسب ، ص 648 .

بن جفنة ابن عمرو مزيقياء⁽¹⁾ ، وبرجع أهل الأنساب^(*) أصول هاتين القبيلتين إلى قبيلة الازد في اليمن⁽²⁾ .

وان سبب هجرتهم عن ارض اليمن هو انهدام سد مأرب بسبب السيل العرم
كما جاء في قوله تعالى : «الْقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ
جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا
لَهُ بَلَدُهُ طَيِّبَةٌ وَرَبُّهُ غَفُورٌ ⇒ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ سَيْلًا
الْعَرِمَ... لا (3) .

وتذكر أسباب أخرى لهجرتهم من اليمن وهي اضطراب أحوال اليمن السياسية
وكذلك الصراع على السلطة بين الاقليات ، وتهديد الأحباش لليمن ، مما خلق إهمالاً
لمشاريع الارواء وتصدع السد⁽⁴⁾ ، ثم ارتحلت القبائل اليمانية متفرقة في اتجاهات
مختلفة ، فنزل منهم آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت الاوس والخزرج
يثرب ، ولم تذكر المصادر تأريخاً محدداً للهجرة ، إلا أن هجرتهم كانت حوالي
منتصف القرن الثاني الميلادي أو بداية القرن الثالث الميلادي⁽⁵⁾ .

وعند وصول الاوس والخزرج إلى يثرب وجدوا اليهود حيث كانوا أقدم عهدٍ
منهم في الاستقرار في يثرب مما اتاح لهم فرصة تملك أغنى الأراضي الزراعية ،
فنزل الاوس والخزرج حولهم وعاشوا في ضيق من العيش ، ويذكر السمهودي⁽⁶⁾ ،
إن الاوس والخزرج سألوا اليهود عقداً جواراً أو حلفاً بينهم لكي يأمن بعضهم بعضاً
ويمتنعون به ممن سواهم فتعاقدوا وتحالفوا ، مما اتاح لهم أن يتعاملوا مع اليهود

(1) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص 332 .

(*) ينظر تفصيل نسبهم وبطونهم ، ابن الكلبي ، جمهرة النسب ، ص 615-649 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق 1/131 .

(3) سورة سبأ ، الآية : 15 ، ومن الآية : 16 .

(4) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 314 .

(5) المصدر نفسه ، ص 315 .

(6) وفاء الوفا ، 1/190 .

ويتشاركوا ويزداد عددهم و ثروتهم ولما أحس اليهود بذلك وتنبهوا ، أساءوا معاملتهم للعرب⁽¹⁾ ، فخشيتهم الاوس والخزرج ، وتوجهوا إلى حليف قوي تربطهم معه رابطة النسب وهم الغساسنة في بلاد الشام وهم فرع من الازد وأبناء عمومتهم⁽²⁾ .

وقد استجاب الغساسنة إلى نصرتهم^(*) ، واستطاع الاوس والخزرج التفوق على اليهود مما اضطرهم إلى طلب الصلح والدخول في حلف معهم ولكنهم التجئوا إلى طريقة جديدة لأضعاف الاوس والخزرج وذلك بزرع الشقاق وإثارة الفتن والحروب بين الاوس والخزرج كما حصل في بعث آخر حرب بين الاوس والخزرج قبيل هجرة رسول الله (ﷺ) بخمس سنين⁽³⁾ .

وقد أشار القرآن إلى دور اليهود في إثارة الفتن والحروب :-

- 1- في قوله تعالى : ﴿... وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾⁽⁴⁾ .
- 2- ﴿وَاغْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾⁽⁵⁾ .

(1) المصدر نفسه ، 190/1 .

(2) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 402/1 .

(*) ويذكر أن دوافع الغساسنة كانت دوافع سياسية تهدف إلى القضاء على نفوذ اليهود بيشرب ذات الموقع الاستراتيجي على طريق تجارتها ، وخاصة أن الغساسنة أنصار الروم المسيحيين أعداء اليهود .

ينظر: حتي ، تاريخ العرب (ما قبل الإسلام) ، 146/1 .

(3) الذهبي ، تاريخ ، 170/1-171 .

(4) سورة المائدة ، من الآية : 64 .

(5) سورة آل عمران ، الآية : 103 .

وهنا إشارة إلى الحروب التي كانت بين الاوس والخزرج فكان الإسلام سبباً في توحيد وتأليف قلوب الاوس والخزرج (1) .

كانت قبيلتا الاوس والخزرج تنقسم كلا منها إلى خمسة بطون حتى بلغت البطون المعروفة أربعين بطناً إلى جانب عشائر عربية أخرى ارتبطت معها برابطة الولاء (2) .

فمن بطون الخزرج الكبيرة بنو النجار : وهم أخوال عبد المطلب بن هاشم (*) ومعهم أيضاً بنو مالك بن عدي بن النجار ، ومنهم بنو معاوية ومنهم بنو عبيد بن ثعلبة ، وبنو سواد بن غنم ، وكذلك بنو مبذول ، وبنو مازن ، وبنو دينار ، وبنو ساعدة وبنو كعب بن الخزرج وبنو خدرة ، وبنو جشم وبنو حرام وبنو زيق ، وبنو سالم وبنو عمرو بن عوف (3) .

أما أشهر بطون الاوس منهم بنو عبد الاشهل وبنو زعوراء وبنو حارثة وبنو ظفر وبنو خطمة ، وبنو جحجيا ، وبنو وافق (4) .

أما عن الاسم الصريح للأوس والخزرج فلم يرد في القرآن الكريم ، ولكنه (⇒) جمعهم تحت اسم واحد وهو الأنصار عند بيعة العقبة ، فيذكر الطبري (5) قائلاً : (إن هذا الحي المبايع من يثرب سموا من السماء بالأنصار) ، كأنما أراد (⇒) أن يجمعهم بهذا الاسم ويؤلف بين قلوبهم ولم يسمهم باسمهم الصريح ليبعدهم عن هذين الاسمين وتبعيتهما من سلسلة حروب دامية مؤلفة بين الطرفين ،

(1) الطبري ، تفسيره ، 383-380/4 .

(2) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، 346-377 .

(*) ويذكر أن احيحة بن الجلاح بن الحريش الشاعر كان سيد الاوس في الجاهلية ، وكانت أم عبد المطلب بن هشام تحت احيحة وهي سلمى بنت عمرو ، ولها حديث في تزويجه إياها . ينظر: ابن

الكلبي ، جمهرة النسب ، ص 628 .

(3) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص 346-377 .

(4) المصدر نفسه ، ص 346-332 .

(5) تفسيره ، 92/28 ؛ القرطبي ، تفسيره ، 89/18 .

إنها ولادة جديدة أرادها (⇒) الحي الجديد من المسلمين اسمه الأنصار، وكما في قوله تعالى :

1- «وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ⇒ وَأَلْفَ بَيْنٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ» (1) .

2- «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...» (2) .

3- «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ» (3) .

4- «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ...» (4) .

5- «لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» (5) .

وكان الاوس والخزرج قد انتشروا بعد انصراف الغساسنة في عالية المدينة وسافلها واتخذوا الأموال والاطام (6) ، فسكنت بطون الاوس المنطقة الجنوبية

(1) سورة الأنفال ، الآية : 62-63 .

(2) سورة الأنفال ، من الآية : 72 .

(3) سورة الأنفال ، الآية : 74 .

(4) سورة التوبة ، من الآية : 100 .

(5) سورة التوبة ، الآية : 117 .

(6) السمهودي ، وفاء الوفا ، 190/1 .

والشرقية وهي منطقة العوالي من يثرب ، أما بطون الخزرج فسكنت المنطقة الوسطى والشمالية(1) .

وقد أشار القرآن الكريم لما لأهل المدينة من ثروات وأراضي خصبة ويمكن أن نستنتج ذلك من خلال بعض الآيات المدنية التي نزلت قبل فتح مكة(2) :

1- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ...»(3) .

2- «أَقْلُ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ» ⇒ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ⇒ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ»(4) .

وقد كان للعرب في المدينة الآطام والحصون كما كان لليهود لكن حصون اليهود كانت أقوى وأكثر(5) . كما في قوله تعالى : «... وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ...»(6) .

(1) السمهودي ، وفاء الوفا ، 190/1-192 .

(2) دروزة ، عصر النبي ، ص 31 .

(3) سورة البقرة ، من الآية : 267 .

(4) سورة التوبة ، الآية : 53-55 . وقصد بهم في هذه الآية المنافقين ؛ ينظر ابن كثير ، تفسيره ، 362/2 .

(5) دروزة ، عصر النبي ، ص 31 .

(6) سورة الأحزاب ن من الآية : 13 ، وقد أوضحنا معنى الآية في موضوع غزوة الأحزاب والخندق .

وقد امتازت الاوس والخزرج بشجاعتهما ومحبتهما لله ورسوله وللمهاجرين⁽¹⁾ ، وكانا قد تمرسا في فنون الحرب والقتال وبرعا فيه ، وشهد لهم

الرسول بذلك ليس فقط في الإسلام وإنما في جاهليتهم أيضاً ، فيذكر صاحب العقد الفريد : أن الأنصار من الاوس والخزرج كانوا من اعز الناس نفساً وأشرفهم هما ، ولم يؤدوا إتاوة قط في الجاهلية إلى أحد من الملوك⁽²⁾ .

كما كان الأنصار أهل فصاحة وبلاغة ، وبراعة في الشعر حتى أن الشعراء الثلاثة الذين كانوا يزودون في شعرهم عن الإسلام وعن النبي (ﷺ) جميعهم من الأنصار⁽³⁾ ، ومنهم شاعر الرسول (ﷺ) حسان بن ثابت بن المنذر بن النجار الخزرجي⁽⁴⁾ ، وكذلك عبد الله بن رواحة الأنصاري الشاعر المشهور وكان كاتباً للنبي (ﷺ) وقد شهد كثيراً من الغزوات وامتاز بشجاعته ، وكعب بن مالك ، (الذي جاء ذكره في القرآن الكريم في سورة التوبة الآية : 118) ، وعلى الرغم من ذم القرآن للشعراء وخاصة المشركين منهم ، وصور إتباعهم للشياطين والجن فيمدحون قوماً بالباطل ويذمون قوماً بالباطل .

ويذكر الطبري⁽⁵⁾ : وقد انزل (ﷻ) استثناءً لشعراء رسول الله (ﷺ) من هؤلاء الشعراء ومنهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، كما في قوله تعالى :
﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۚ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۚ﴾

(1) ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الواحدي الشيباني ، (ت630هـ) ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، المطبعة الوهبيه ، (القاهرة-1280هـ) ، ج 1 ،

(2) ابن عبد ربه ، كتاب الياقوتة ، ص61 .

(3) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ص340 .

(4) محمد طاهر درويش ، حسان بن ثابت ، ص100 .

(5) تفسيره ، 128/19 .

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ
كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ... لا (1) .

وقد برزت ظاهرة النفاق في مجتمع المدينة ، شأنه شأن المجتمعات الأخرى
حيث لم يكن مثالياً لا يحتوي إلا الأخيار الأبرار ، وإنما كان فيه الأشرار أيضاً ، حيث
يوجد الشر والخير ويوجد الصادق والكاذب والمرائي فيه .

ولذلك فإن الاوس والخزرج لم يكونوا كلهم بمستوى واحد من الإيمان
والإخلاص ، وإنما كانت هناك جماعة منهم من عرف بقله الإيمان والنفاق ، وقد
شخصهم الإسلام ونبذهم ودمهم في القرآن الكريم وأطلق عليهم تسمية المنافقين (*) ،
والمنافق عند المفسرين : (هو الذي يخالف قوله عمله ، وسره علانيته
مخرجه) (2) ، كما في قوله تعالى : «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا
بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» ⇒ يُخَادِعُونَ
اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ ⇒ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» لا (3) .

(1) سورة الشعراء ، من الآية 224- من الآية 227 ؛ وهي من الآيات المدنية في السور المكية ؛ ينظر
القرآن الكريم.

(*) والنفاق : هو من المصطلحات الإسلامية المحدثّة المشتقة ، وهي تسمية تطلق على كل من تظاهر
بالإسلام واستتر بالكفر ، والنفاق في اللغة مأخوذ من نافق ينافق منافقه ونفاقاً وهو مأخوذ من النفاق
وهو السرب في الأرض ، والذي يخلص إلى مكان آخر ويستتر فيه فالمنافق هو الذي يستتر كفره
ويخفيه ، مثل اليربوع الذي يدخل نفقه فيستتر فيه كما في قوله تعالى في سورة الأنعام الآية : 35 :
(فَإِنْ اسْتِطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي
السَّمَاءِ ..) . ينظر: الجاحظ ، كتاب الحيوان ، 332/1 ؛ ابن منظور ، لسان العرب ، 4508/6
؛ الزبيدي ، تاج العروس ، 430/6 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 103/1 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 45/1 ؛ القرطبي ، تفسيره ، 214/8 .

(3) سورة البقرة ، الآية : 8-10 .

ويرى القرطبي⁽¹⁾ : أن المسلم حتى لو غلبت عليه المعاصي لا يكون كافراً إلا إذا أثرت في اعتقاد القلب ، ويرى ابن كثير⁽²⁾ ، إن النفاق اكبر الذنوب ، لهذا نرى (⇒) يتوعددهم بأشد العقوبة كما في قوله تعالى : ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾⁽³⁾ .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾⁽⁴⁾ .

وان هذه التسمية أطلقها القرآن الكريم على كل من يتصف بهذه الصفات ونجدها في ستة وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم وكذلك وجود سورة سميت بـ(المنافقون) في القرآن الكريم ، وفي بعض الأحيان لم يصرح القرآن بهذه التسمية وإنما أشار إلى أعمالهم ، وهذا بحد ذاته يشكل دلالة واضحة إلى خطورة الدور الذي لعبه المنافقون في المجتمع المدني والذي اثر سلبياً في حياة المجتمع سواء سياسياً وعسكرياً واجتماعياً ، وهذه الظاهرة لم تظهر في مكة⁽⁵⁾ ، وإنما ظهرت في مجتمع المدينة والمناطق المحيطة بها من (الأعراب) ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ...﴾⁽⁶⁾ .

وخاصة بعد معركة بدر حيث أصبح المسلمون قوة محسوسة في المجتمع المدني .

(1) تفسيره ، 214/8 .

(2) تفسيره ، 45/1 .

(3) سورة النساء ، الآية : 138 .

(4) سورة النساء ، الآية : 145 ؛ ينظر ، محمد فؤاد ، المعجم المفهرس ، ص 809 ، وقد جمع آيات النفاق في هذه الصفحة .

(5) عبد الله خلف عبد حمد الحلبوسي ، المنافقون في عصر الرسالة ، ص 193 .

(6) سورة التوبة ، من الآية : 101 ، وأقاموا على نفاقهم ولم يتوبوا كما تاب الآخرون ؛ ينظر الطبري ، تفسيره ، 9/11 .

: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً يُرَاوُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ مَذْذَبَيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (1) .

والمنافقون هم جماعة اظهروا الإسلام تقية ، وذلك لسرعة انتشار الإسلام في المدينة واعتناق أهلها له ، جعلت الكثير من مشركي يثرب يسارعون بالتأييد الظاهر للدعوة الإسلامية ويعملون في الخفاء بما فيهم بعض زعماء وسادات قومهم (2) .

لهذا نرى قد اتبعهم الكثير من أبناء قومهم ، وكان على رأس هؤلاء زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي (3) .

وكان المنافقون يكيّدون للمسلمين ويتآمرون عليهم ويسخرون من المسلمين ورسولهم الكريم (ﷺ) كما في قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ...﴾ (4) .

وقد وجد المنافقون في اليهود خير عون ومساند لهم في تأمرهم على المسلمين حيث كان لليهود تأثير واضح على المنافقين ، وقد حاولوا تعزيز هذا الدور من خلال إسلام عدد من أبحارهم نفاقاً ، وقد أوضح القرآن الكريم هذه العلاقة في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (5) .

(1) سورة النساء ، 142-143 .

(2) ابن حبيب ، المحبر ، ص 467 ، وقد أورد قائمة بأسمائهم .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق 584-585 .

(4) سورة التوبة ، في الآية : 61 ؛ ينظر الفصل الخامس ، غزوة تبوك ص 133 .

(5) سورة الحشر ، الآية : 11 .

ولعب المنافقون دوراً خطيراً في مجابهتهم للدعوة الإسلامية ولاسيما موقفهم من غزوات النبي (ﷺ) حيث تخلف أكثر المنافقين عن هذه الغزوات وحاولوا إخراج موقف المسلمين وفي اخطر المعارك متذرعين بدعوى باطلة وواهية كما حصل في غزوة احد^(*) ، حين تخلى ابن سلول عن المعركة ورجع بثلاث الجيش تاركاً الرسول وحده يجابه قريش ، أما الغزوات التي شاركوا فيها فقد كانت تغطية لنفاقهم والحصول على الغنائم وقد صور في قوله : «وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا» (1) .

ويذكر أن هذه الآية كانت رداً على المقولة التي قالها احد المنافقين وهو مغيث بن بشير يوم الخندق بان محمداً قد أوعدنا بفتح قصور فارس والروم واليمن ولا يتبرز احد إلى الخلاء من رحله والله الغرور⁽²⁾ ، وأيده على ذلك رهط من المنافقين، ولم يكتف بذلك المنافقون بل كانوا يبحثون عن أي ثغرة للنفوذ منها ، وحاولوا بكل الطرق إثارة الصراع القبلي وإثارة الأحقاد القديمة التي كانت بين الاوس والخزرج.

وقد حاول عبد الله بن أبي بن سلول أن يثير حرباً بين الأنصار والمهاجرين ، ليخرجهم من يثرب ، فيذكر ابن هشام⁽³⁾ أن اثنين من المسلمين أحدهم من بني غفار والآخر من الخزرج تخاصما فيمن يرد الماء قبل الآخر من المريسع وهي ماء لقبيلة بني المصطلق ، فصرخ الأول يا معشر المهاجرين وصرخ الثاني يا معشر الأنصار ، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول واستغل هذه الحادثة وقال وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم فقال : (أوقد فعلوها وقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول ، سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الانزل) .

(*) انظر غزوة أحد في الباب السابق ، والآيات التي نزلت فيها ، ص 107.

(1) سورة الأحزاب ، الآية : 12 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق2/246 .

(3) السيرة ، ق2/290-291 .

ثم اقبل على من حضر من قومه ، فقال لهم : (هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم)⁽¹⁾ ، فلما وصل الخبر إلى رسول الله (ﷺ) وعنده عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال له : أأمر بقتل ابن سلول فقال الرسول (ﷺ) فكيف يا عمر إذا تحدث الناس إن محمداً يقتل أصحابه لا ولكن أذن بالرحيل .

ولما عاد الرسول إلى المدينة مشى إليه ابن سلول معذراً وحلف له انه لم يقل ذلك⁽²⁾ ، وقد وقف أسيد بن حضير بجانب رسول الله وقال له : فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت ، هو الذليل وأنت العزيز ثم قال : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً⁽³⁾ .

ونزلت اثر ذلك السورة التي ذكر فيها المنافقين ومنهم عبد الله بن سلول ومن كان على مثل أمره واصفاً إياهم ، كما في قوله تعالى :-

1- «وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ

غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...»⁽⁴⁾ .

2- «يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ

لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ...»⁽⁵⁾ .

وكان معظم المنافقين من الاوس والخزرج لما يدخل الأيمان في قلوبهم لنزعتهم القبلية وعصبيتها وكذلك لحسدهم للرسول الكريم (ﷺ) القادم الغريب للمدينة الذي تزعمهم وكان له هذا النفوذ في المدينة ، وكما ذكرنا إنهم قبيل الهجرة كانوا يستعدون لتنصيب عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي ملكاً على يثرب⁽⁶⁾ ، لهذا نرى

(1) المصدر نفسه ، ق 291/2-292 .

(2) المصدر نفسه، ق 292/2 .

(3) المصدر نفسه، ق 292/2 .

(4) سورة آل عمران ، من الآية : 154 ؛ ينظر الطبري ، تفسيره ، 139/4-140 .

(5) سورة المنافقون من الآية : 8 ؛ وينظر الطبري ، تفسيره ، 109/28 ، ويذكر أنها نزلت في عبد الله بن

أبي بن سلول في إحدى الغزوات .

(6) ابن هشام ، السيرة ، ق 584/1-585 .

أن معظم المنافقين كانوا من رهط عبد الله بن أبي بن سلول ولا يوجد بين الاوس إلا القليل بل أن ابن إسحاق⁽¹⁾ ، يؤكد عدم وجود منافق واحد من بني عبد الاشهل وهم من الاوس ، لأنهم لم يكونوا مرتاحين لزعيم من الخزرج يكون ملكاً عليهم ، وكانوا يفضلون أن يحكمهم رجل محايد يجمع كلمتهم ويوحدهم .

وبعد فشل كل محاولات المنافقين للإيقاع بين الأنصار والمهاجرين ، حاولوا بعد ذلك الطعن في بيت النبوة ، في زوجة الرسول (ﷺ) عائشة بنت أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) ، مستهدفين من وراء ذلك أغراض سياسية وهم يعلمون ويتقصدون إيذاء الرسول (ﷺ) فليس هناك اعز وأغلى من الشرف والعرض على العربي .

فكان (حديث الافك)^(*) ، الذي لفته المنافقون ، وتناقلته الألسن في المدينة . وفي رواية عن السيدة عائشة : (مررنا بملاً من المنافقين ، وكانت من عاداتهم أن ينزلوا منتبذين من الناس فقال عبد الله بن أبي رئيسهم : مَنْ هذه ؟ قالوا : عائشة وصفوان قال : والله ما نجت منه ولا نجا منها ، وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ، ثم جاء يقودها)⁽²⁾ ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۚ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ۚ﴾⁽³⁾ .

وقد احتمل الرسول كل ما يصدر عنهم من إيذاء وعاملهم في الظاهر معاملة المسلمين ، وقد كفا الله المسلمين ورسولهم كيدهم وأمرهم بالصبر عليهم ، وقد صور القرآن الكريم خفايا نفوسهم المريضة بقوله تعالى : ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا

(1) المصدر نفسه ، 606/3 .

(*) ينظر ابن هشام ، السيرة ، ق2/297-307 ؛ وقد أوردنا ذلك الحديث ضمن موضوع الشورى في حكم الرسول ص46 .

(2) الحلي ، السيرة الحلبية ، 607/2 .

(3) سورة النور ، الآية : 11-12 .

مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرَحُونَ ⇒ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (1) .

وقوله تعالى : «يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ» (2) .

ولذلك نرى النبي (ﷺ) لم يسمع لرأي بعض الصحابة الذين أشاروا عليه بقتل المنافقين وعلى رأسهم زعيم المنافقين خوفاً من إثارة عصبية الخرج (3) ، خصوصاً وإن لهؤلاء أبناء وأخوة وأقارب مؤمنين وصادقين يقفون في صفه ويحاربون معه وزعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، كان قد احتفظ بزعامة قومه ، ولازال له دور مؤثر في قبيلته وعلى أتباعه من المنافقين وإن قتله سيولد ردة فعل عنيفة ، ويشعل نار العصبية من جديد ، وأثبتت الأيام نجاح سياسة الرسول اتجاه المنافقين وزعمائهم حتى أخذ قوم عبد الله بن أبي بن سلول بعد ذلك يؤنبونه وتدنت مكانته في أعينهم ، وخاصة بعد أن شن القرآن الكريم حملة قوية ضدهم كشف مؤامرتهم ودسائسهم ، فاضحاً حججهم الواهية التي كانوا يعتذرون بها عند اعتذارهم من المسلمين ورسولهم الكريم (ﷺ) أو عند تخلفهم عن الغزو ، وخاصة بعد السنة التاسعة للهجرة وبعد نزول سورة براء (*) بل أن القرآن طلب من الرسول والمسلمين أن يقفوا منهم موقفاً حازماً وطلب منه عدم الاستغفار لهم كما كان يفعل وخاصة بعد كشف مؤامرة محاولة اغتياله عند العقبة في غزوة تبوك (4) :

(1) سورة التوبة ، الآية : 50-51 .

(2) سورة التوبة ، الآية : 64 .

(3) ابن حجر ، الإصابة ، 1/150 ، 564-565 ، 2/366 .

(*) وقد ذكرنا تلك الآيات والمواقف في الباب الأول وخاصة في غزوة تبوك ، ص 133 .

(4) المقرئ ، أمتاع الأسماع ، 1/479 ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، ص 343 .

- 1- «لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ» (1) .
 - 2- «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» (2) .
 - 3- «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ...» (3) .
 - 4- «فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لِي تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ» (4) .
- وقوله تعالى : «وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمِنُوا بِهَا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذُرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ» (5) .
- وكان ابن أبي من أولئك فنعى الله ذلك عليه وذكره منهم (6) .
- ثم قال تعالى : «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (7) .

(1) سورة التوبة ، الآية : 66 .

(2) سورة التوبة ، الآية : 73 .

(3) سورة التوبة ، من الآية : 80 .

(4) سورة التوبة ، الآية : 83 .

(5) سورة التوبة ، الآية : 86 .

(6) ابن هشام ، ق 552/2-553 .

(7) سورة التوبة ، الآية : 93 .

«وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ» (1) .

وتذكر الروايات أنها نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول عندما ارسل الى رسول الله (ﷺ) ليستغفر له ، ثم سأله ابن عبد الله بن أبي ان يعطيه رسول الله قميصه ليكفنه فيه (2) .

وقد صلى رسول الله (ﷺ) ومشى معه حتى قام على قبره . قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : «وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا...» .

فلم يصل رسول الله (ﷺ) بعدها على منافق حتى قبضه الله تعالى (3) ، وبنى المنافقون مسجد الضرار والذي أمر رسول الله (ﷺ) بإحراقه ، وفضح (⇒) نوايا المنافقين في بنائهم هذا المسجد .

ويبدو لنا من آيات القرآن الكريم أن النفاق لم يكن مقتصرًا على الرجال بل شمل النساء أيضاً لكن لم تذكر لنا كتب التاريخ أسماء المنافقات كما ذكر أسماء المنافقين ، كما في قوله تعالى : «الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ...» (4) .

وكان لإخراج اليهود من المدينة اثر كبير في تخفيف شدة النفاق والمؤامرات فقد خسر المنافقون اكبر وأخبث أعوانهم ، فضلاً عن كشف القرآن الكريم لمؤامراتهم ، وموت زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، بعد فتح مكة ودخول الناس أفواجا في دين الإسلام .

(1) سورة التوبة ، الآية : 84 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 206/10 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق 552/2 .

(4) سورة التوبة ، من الآية : 67 .

3- المهاجرون من قريش والقبائل الأخرى :-

لقد بدأت هجرة المسلمين الأوائل من قريش وحلفائهم ومواليهم إلى المدينة قبل بيعة العقبة الكبرى بسنة تقريباً⁽¹⁾ ، كما ذكرنا في موضوع الهجرة ، لأن الدين أغلى من الوطن وخاصة عند تعرض الأيمان للخطر فأن ارض الله واسعة ، وخاصة بعد ازدياد أذى قريش للمسلمين وذلك لإيجاد ملجئ آمنٍ للدعوة بعيد عن اضطهاد قريش ، وأيضاً من أجل بناء مجتمع جديد والتفرغ لنشر الدعوة ، وأصبحت الهجرة فرضاً على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد ، وترك الهجرة يعدّ تقصيراً يسأل عنه (⇒) عباده المؤمنين⁽²⁾ ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾⁽³⁾ .

وحاولت قريش بشتى الطرق منع الهجرة لأنها كانت تعي مخاطرها ، فحاولت منع الرسول (ﷺ) من الهجرة واللاحق بالمهاجرين ، خوفاً من أن يصبحوا قوة كبيرة تضر مصالحهم ، ولكن صدق إيمان المهاجرين الأوائل وقوة عزيمتهم أفشلت كل خطط وأساليب قريش وقصة هجرة أبي سلمة ومنعهم من هجرة زوجته ومن ثم لحقت به ومعها ابنها في حجرها دليل واضح على ذلك ، وقصة تعذيب قريش لبلال الحبشي وخباب وعمار فمن شدة تعذيبهم امضوا ما أراد المشركون فأرسلوهم بعد ذلك⁽⁴⁾ ، بعد أن ظنوا أنهم نالوا من إيمانهم ، كلها أمثلة تدل على إصرارهم على اللاحق بإخوانهم المؤمنين فانزل فيهم قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوِّنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا

(1) ابن سعد ، الطبقات ، 269/2 ، وقد سبقها هجرتان للحبشة ؛ ينظر ابن إسحاق ، السيرة ،

220-213/1 ، 346-321/2 .

(2) القرطبي ، تفسير ، 346/5 .

(3) سورة النساء ، الآية : 97 .

(4) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، 261/1 .

حَسَنَةً وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ⁽¹⁾ ، وكذلك قصة خروج صهيب بن سنان الرومي مهاجراً الى الله ورسوله ومحاولة قريش منعه واقتداء نفسه وهجرته بماله وأهله⁽²⁾ ، نزلت بحقه : «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ...»⁽³⁾ .

وبعد هجرة النبي (ﷺ) بدأت هجرة جماعية إلى المدينة فقد ذكر أن آل مظعون الجمعي وآل أبي البكير وحلفاء بني عدي وغيرهم كانوا ممن أسرع في الخروج إلى المدينة رجالاً ونساء ولم يبق بمكة منهم احد حتى أغلقت دورهم ، ولكن الرسول واجه مشكلة توفير السكن والطعام لهؤلاء المهاجرين الذين تخلوا عن أموالهم وتركوها في مكة ، وقد لاقى هؤلاء الترحيب ومساعدة الأنصار الذين أنزلوهم في بعض دورهم حتى اختطت دورهم⁽⁴⁾ ، وقاسموهم طعامهم وشرابهم وقد أعطى الإسلام الهجرة مكانة عالية وشجع المسلمين وحثهم عليها .

: «وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِقًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا»⁽⁵⁾ .

ذلك أن المؤمن الذي يفارق ارض الشرك وأهلها هرباً بدينه إلى ارض السلام وفي سبيل الله ودينه يجد سعة في أمر دينه أي في ممارسة شعائره الدينية ، وقيل سعة في الرزق⁽⁶⁾ ، عن سبب نزول هذه الآية يذكر الطبري⁽⁷⁾ في رواية عن سعيد بن جبير : أن رجلاً من خزاعة يقال له ضمرة بن العيص وقيل العيص بن ضمرة لما

(1) سورة النحل ، الآية : 41 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق1/468-480 وفيه أسماء المهاجرين والمهاجرات حسب تسلسلهم في الهجرة إلى المدينة ، ابن شبة ، تأريخ المدينة ، 261/1 .

(3) سورة البقرة ، من الآية : 207 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق1/470-474 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 389/3 ، 391-397 .

(5) سورة النساء ، الآية : 100 .

(6) الطبري ، تفسيره ، 243/5 .

(7) المصدر نفسه ، 244/5 .

سمع أمره (⇒) بالهجرة وكان مريضاً أمر أهله أن يحملوه على سريره إلى رسول الله (ﷺ) ، ولكن أدركه الموت قبل أن يصل إلى المدينة ، فأنزل فيه (⇒) هذه الآية ، وقد نهى سبحانه وتعالى المسلمين من اتخاذ من لم يهاجر من المسلمين من مكة ممن لا يمنعهم عائق للهجرة أولياء ما لم يهاجروا كما في قوله تعالى : ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾ (1) .

وقد شهد معظم المهاجرين الأوائل مع الرسول (ﷺ) بناء دولة الإسلام وشاركوا فيها وكذلك سائر المشاهد وقاتلوا بكل بسالة على الرغم من قلتهم ، وذلك لقوة إيمانهم وحبهم لله ورسوله (2) ، لهذا اعتمد عليهم الرسول وأمرهم على كثير من السرايا والبعوث (3) ، وقد ذكر (⇒) هجرتهم وجهادهم وما خصهم به من اجر ودرجة عنده (⇒) :-

1- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (4) .

2- ﴿...فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (5) .

3- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ

(1) سورة النساء ، من الآية : 89 .

(2) ابن سعد ، الطبقات ، 150/3 .

(3) الواقدي ، المغازي ، 19-1/1 .

(4) سورة البقرة ، الآية : 218 .

(5) سورة آل عمران ، من الآية : 195 .

فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (1) .

4- «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ
الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (2) .

واستمرت هجرة المسلمين حيث يذكر الواقدي (3) : أن في معركة بدر انحاز
عدد من المسلمين الذين كانوا مع جيش المشركين مخفين إسلامهم إلى جيش
المسلمين ، وكذلك اسلم عدد من المشركين بعد المعركة ، وقد حرص رسول الله
(ﷺ) على استقدام المهاجرين من المسلمين في الحبشة لما عهد فيهم من قوة
إيمان وصبر وقد فرح فرحاً كبيراً بقدوم جعفر بن أبي طالب والمهاجرين من الحبشة
على متن سفينتين (4) .

وتتابعت الهجرات الفردية والجماعية ، فمن كان قدم المدينة له عريف نزل
على عريفه ومن لم يكن له عريف نزل في الصفة ، وكان يوكل على كل رجل من
العرب المهاجرين رجلاً من الأنصار يفقهه في أمور دينه ، ويقرئه القرآن (5) .

ولم تكن الهجرة مقتصرة فقط على الرجال فقد شملت النساء أيضاً كما في
قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ
الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ
فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا
هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ
مَا أَنْفَقُوا ... (6) .

ويقال إن هذه الآية نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أول
من هاجر في الهدنة عنت صلح الحديبية وما فيها من شروط إرجاع من جاءه

(1) سورة الأنفال ، الآية : 72 .

(2) سورة الأنفال ، الآية : 74 .

(3) المغازي ، 157-156/1 .

(4) المصدر نفسه ، 818/3 .

(5) ابن شبه ، تأريخ المدينة ، 264/1 .

(6) سورة الممتحنة ، من الآية : 10 .

مسلماً بدون إذن وليه إلى قريش فلما قدمت على أخيها الوليد بن عتبة ففسخ الله العقد الذي بينه وبين المشركين في شأنها ، ثم انكحها رسول الله (ﷺ) زيد بن حارثة⁽¹⁾ ، لان المسلمة لا تحل لمشرك ، وخلال المدة ما بين فتح خيبر وفتح مكة اسلم عدد من قريش وهاجروا إلى المدينة وكان منهم جماعة عرفوا باسم السبعين ، وكانت هجرتهم عام خيبر وسموا كذلك نسبة إلى عددهم الذي بلغ سبعين رجلاً جميعهم من بني عدي بن كعب⁽²⁾ ، ولكن هؤلاء المهاجرين لم يقبلهم الرسول التزاماً بشروط صلح الحديبية وظلوا مدة خارج مجتمع المدينة ويقول ابن هشام⁽³⁾ : إن أبا بصير وهو عتبة بن أسيد بن جارية وكان فيمن حبس بمكة فلما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة أرسلت قريش وفداً إلى الرسول (ﷺ) للمطالبة برده إلى مكة فقال الرسول لأبي بصير : (إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً فانطلق إلى قومك ، قال : يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟ ، فأنطلق أبا بصير مع اثنين من موكله لإعادته إلى قريش ولكن أبا بصير قتل احدهم وهرب الآخر ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص من ناحية ذي المروة خارج المدينة على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون عليها إلى الشام) .

وبلغ المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة قول الرسول لأبي بصير (ويل أمه مَحَشٌ لو كان معه رجال) ، فخرجوا إلى أبي بصير بالعيص فاجتمع إليه من قريش سبعين رجلاً وكانوا قد ضيقوا على قريش يعترضون قوافلها التجارية لا يظفرون أحداً منهم إلا قتلوه ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها حتى كتبت قريش إلى رسول الله (ﷺ) تسأل بأرحامها إلا آواهم فلا حاجة لهم بهم فأواهم رسول الله فقدموا عليه المدينة⁽⁴⁾

(1) ابن شبة ، تأريخ المدينة ، 267/1 .

(2) ابن حجر ، الإصابة ، 285/1 ، 409/3-411 .

(3) السيرة ، ق2/323 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق2/323-324 .

، هذا وقد بقيت معاناة المسلمين الذين احتجزوا من مكة ولم يستطيعوا الهجرة ، وبعضهم بقوا محبوسين من قبل أولياء أمورهم حتى فتح مكة .

وقبيل الفتح هاجر خالد بن الوليد وخرج معه فتية من قريش قدموا المدينة ليسلموا بين يدي رسول الله (ﷺ) (1) ، وبعد الفتح اسلم جميع قريش وقد حظيت قريش في مجامع المدينة بمنزلة كبيرة فكانت فيهم القيادة والزعامة وإن إعطاءهم هذه المنزلة المتقدمة من قبل الرسول (ﷺ) ليس عن عاطفة أو عصبية قبلية فكل قبائل الجزيرة العربية كانت تعترف بتلك المنزلة المتميزة لقريش حيث كانوا يسمون في الجاهلية أهل الله وسكان أهل الحرم (2) .

هذا فضلاً عن كونهم السابقين في الإسلام والمضحين من أجله ومفارقتهم ديارهم وأموالهم ، وقد اظهر الكثير من رجال قريش مواهب فذة في السلم والحرب يزودون عن الإسلام والمسلمين (3) ، وكما في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (4) .

وقد أثنى القرآن على المهاجرين والأنصار ومدحهم ووعدهم بنعيم الآخرة فقال فيهم : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (5) .

(1) ابن إسحاق ، المغازي ، 884-867/4 .

(2) ابن حبيب ، محمد بن حبيب بن عمرو الهاشمي البغدادي ، (ت245هـ) ، المنمق في أخبار قريش ،

ط1 ، تصحيح وتعليق : خورشيد احمد ، (حيدر آباد الدكن-1964) ، ص 10 .

(3) ابن حجر ، الإصابة ، 2/3 .

(4) سورة الأنفال ، الآية : 75 .

(5) سورة التوبة ، الآية : 100 .

ويذكر الطبري⁽¹⁾ ، قصد (⇒) هنا بالمهاجرين الأولين من كان قبل البيعة إلى البيعة أي أدرك بيعة الرضوان عند صلح الحديبية .

وقد رضى (⇒) عنهم ورضوا عنه وجزاهم جناثٍ عدنٍ خالدين فيها .
وللهجرة أهمية كبيرة في حياة الدولة الإسلامية في عصر النبي عندما كان عدد المسلمين قليلاً نسبياً ومقصوراً على المدينة وما جاورها وكان المسلمون مهددين بكثير من الأخطار فكان لابد من دعوة المسلمين إلى الاستقرار في المدينة ليكونوا حول الرسول كي يتمكنوا من إجابته إذا دعاهم للدفاع عن الإسلام ، وكذلك لتعلم وإقامة شعائر الإسلام بصورة صحيحة حيث لم يكن يتسنى للمسلمين إقامة ذلك في دار الشرك لهذا كان الرسول (ﷺ) لا يقبل من أحد الدخول في الإسلام ما لم يهاجر لأن الدين الإسلامي دعا إلى التحضر وترك البداوة ، ومعنى المهاجر أصبح مرادف لسكان المدن وهي أعلى رتبة في الإسلام ، لذلك فإن أبا ذر^(*) عدَّ أقسى عقوبة حلت به من قبل عثمان (◀) حين نفاه إلى بادية الربذة ، وكان يقول : (ردني عثمان بعد الهجرة أعرابي)⁽²⁾ .

وظل هذا المفهوم في عصر الرسول إلى أن فتحت مكة فقال (ﷺ) : (لا هجرة بعد الفتح)⁽³⁾ ، وهذا بمعنى وقف الانتقال إلى سكن المدينة وذلك لانتفاء الكثير من الأسباب التي تدعوا إلى الهجرة ولتجنب الاختناق السكاني وما يترتب عليه من أزمات اقتصادية واجتماعية^(*) .

(1) تفسير ، 11/6 ، وفي رواية عن الشعبي .

(*) أبو ذر : وهو جندب بن جُنادة وهو من بني غفار وهو من المسلمين الأوائل اسلم بعد أبو بكر بيوم أو يومين وقد اسلم بين يدي الرسول (ﷺ) في مكة وقال عنه علي بن أبي طالب (◀) : وعى علماً عجز فيه وكان شهماً على دينه حريضاً على علمه وكان من أهل الفتوى في عصر الرسول (ﷺ) لا يخشى في الحق لومة لائم . ينظر: ابن سعد ، الطبقات ، 354/2 ، 223-219/4 .

(2) المصدر نفسه ، 228-226/4 .

(3) ابن شبه ، تأريخ المدينة ، 262/1 .

(*) وهناك رسالة جامعية متخصصة وهي :- خليفة ، حامد محمد ، مهاجرة الحجاز تكوينهم وأثرهم في بناء الدولة في عهد الرسول (ﷺ) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، مقدمة إلى جامعة بغداد ، كلية الآداب ، (بغداد-1995) .

وشملت الهجرة أيضاً القبائل الحجازية التي هاجرت إلى المدينة فكانت منازل اسلم ومالك ابني أقصى من زاوية يقصان التي بالسوق إلى خط جهينة إلى شامي ثنية عثث ونزلت سائر اسلم وهم آل بريدة بن الحصيب وآل سفيان ما بين زقاق الحضارمة إلى زقاق القنبلة⁽¹⁾ ، ونزل أشجع بن ريث بن غطفان الشعب الذي يقال له شعب أشجع وهو ما بين سائلة أشجع إلى ثنية الوداع⁽²⁾ .

ونزل بنو غفار بن مليل بن حمزة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة القطيعة التي قطعها لهم النبي (ﷺ) وهي ما بين دار الحجارة بالسوق إلى زقاق ابن حبيب⁽³⁾ .

أما عن مساكن المهاجرة من قريش ، فكان دور عبد بن قصي في زقاق الصفارين ، أما دور بني زهرة منها دور عبد الرحمن بن عوف فكانت قرب المسجد^(*) .

4- الموالى والعبيد :

يشكل هؤلاء طبقة واسعة في المجتمع العربي وخاصة مجتمع مكة والمدينة ، وليست هذه الظاهرة خاصة فقط بالمجتمع العربي ، وإنما كانت سائدة في مختلف البيئات والبلدان في ذلك العصر ، وتشكل هذه الفئة أدنى الفئات في الترتيب القبلي للقبيلة ، وتمثل أيضاً آخر طبقة في السلم الاجتماعي ، وتعد الحروب والغزوات من

(1) ابن شبة ، تأريخ المدينة ، 160/1-164 .

(2) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 86/2 .

(3) ابن شبة ، تأريخ المدينة ، 159/1 .

(*) ولمزيد من الإطلاع عن مساكن المهاجرين من قريش والقبائل العربية المهاجرة ؛ ينظر ابن شبة ،

تأريخ المدينة ، 164-142/1 .

أهم مصادر العبيد⁽¹⁾ ، وكانت المناطق المجاورة لجزيرة العرب في أفريقيا مصدراً مهماً من مصادر العبيد⁽²⁾ ، وكانت هذه الطبقة اجتماعياً محرومة من الامتيازات مثقلة بالواجبات ، ولاسيما من كان منهم من أصحاب السواد من أبناء الإمام الذين كان العرب يطلقون عليهم اسم الهجناء ويأبون إلحاقهم بأنسابهم وكان يقال لولد العربي من غير العربية أيضاً الهجين لأن الغالب على ألوان العرب الأدمة⁽³⁾ ، وكانت العرب قبل الإسلام إذا كان للرجل منهم ولد من أمه استعبده ومن الأمثلة على ذلك عنتر بن شداد ، وكان ابن أمة سوداء ، رفض أبوه أن يلحقه بنسبه ، حتى أبدى شجاعة نادرة في الدفاع عن القبيلة فاعترف به^(*) .

ولقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة مكية ومدنية متنوعة الأهداف والأساليب تصور الرق والرقيق وتحدد موقفهم الاجتماعي والقانوني كما في قوله تعالى :-

1- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ...»⁽⁴⁾ .

وهنا تأكيد صريح على عدم تخطي السلم الطبقي في القصاص في القتل فلا يجوز قتل حر بعبد ولا عبد بحر ، لأن القرآن الكريم اعترف ببعض الأعراف والتقاليد والنظم الجاهلية وهذب بعضها والغى البعض الآخر الذي يتعارض مع تعاليم الإسلام .

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق1/676 ، ق2/459 ؛ ابن حجر ، الإصابة ، 2/214 ، 367 .

(2) زيدان ، جرجي ، تاريخ التمدن الإسلامي ، (بيروت - د.ت) ، ج4 ، ص20 .

(3) ابن منظور ، لسان العرب ، 13/431 ؛ ابن قتيبة ، أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ،

(ت276هـ) ، الشعر والشعراء ، دار إحياء العلوم ، (بيروت - 1986) ، ص153 .

(*) وعند هجوم إحدى القبائل العرب على قبيلة عنتر قال له أبوه : كر لأن العبد لا يحسن القتال فانشد

عنتر :- (كل امرئ يحمي حره * أسوده وأحمره) . ينظر: عنتر العبسي ، ديوانه ، شرح كمال

البستاني ، دار صادر ، (بيروت-1958) ، ص23 .

(4) سورة البقرة ، من الآية : 178 .

2- «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ...» (1).

وهنا ترغيب منه (⇒) بزواج العبيد والإماء المؤمنين لتحقيق نوع من المساواة في المجتمع .

3- : «... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...» (2) .

ومعنى الآية الكريمة كما أورد الطبري (3) : يحق للمسلم أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع كما حددت الآيات السابقة للآية ، فان خاف الرجل أن لا يعدل ويجور بينهن فعليه أن يقتنع بواحدة .

ويتسرى بما هو ملك يمينه من الإماء ، إذن إن دور الجواري لم يكن مقتصرًا على الخدمة عند الأسياد ، وإنما أيضاً للتسلية وإرضاء الشهوات (4) ، وإن مالك الإماء يحق له أن ينكح ما يريد دون عقد زواج يعدهن ملك اليمين .

4- «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَاَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ أَنْ تَبْغِضُوا فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (5) .

(1) سورة البقرة ، من الآية : 221 .

(2) سورة النساء ، من الآية : 3 .

(3) تفسيره ، 580/4-581 .

(4) الاصفهاني ، الأغاني ، 65/1 .

(5) سورة النساء ، الآية : 25 .

والمعنى ، فإذا لم يستطع المؤمن الحر من الزواج بالحرائر لعدم السعة والغنى فلينكح من إماء المؤمنين بإذن أربابهن⁽¹⁾ ، وهنا نستنتج قاعدة عامة لا يمكن للعبد أو الأمة الزواج دون إذن سيدهما⁽²⁾ .

وكان الإماء مادة البغاء في الجاهلية فكن أكثر تعرضاً له وارتكاساً فيه وكان أمراً مستساغاً بالنسبة اليهن ، لهذا عندما وضع الإسلام عقوبة الزنا جعل على الأمة نصف عقوبة الحرة⁽³⁾ ، لهذا كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ الإماء امهاتاً لأولادهم⁽⁴⁾ ، ولهذا أوصى (ﷺ) المؤمنين غير القادرين على زواج الحرائر ، بالصبر على الزواج .

ومن الآيات التي ورد فيها ذكر العبيد قوله تعالى :

5- «وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ...»⁽⁵⁾ .

6- «اضْرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»⁽⁶⁾ .

ويبدو من هذه الآيات انه كان يطلق على الرقيق تعبيرات (العبد من الذكور للمفرد والأمة للمفرد والإماء للجمع من الإناث وهو تعبير يستخدم نقيض الحرية والحر ، ويستخدم تعبير الغلمان والولدان ، على الأرقاء من الذكور وممن لم يصلوا إلى سن كبيرة ويقومون بخدمة مالكم الخاصة ، وتعبير الفتى والفتاة يطلق لتلطف

(1) الطبري ، تفسيره ، 21-16/5 .

(2) دروزة ، عصر النبي ، ص 233 .

(3) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 235 ، وسيتم الحديث عن الإماء والزنى بشكل مفصل في الفصل القادم .

(4) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، (ت 255هـ) ، المحاسن والأضداد ، تصحيح : محمد أمين

الخانجي ، مطبعة السعادة ، (مصر - د.ت) ، ص 253 .

(5) سورة يوسف ، من الآية : 30 .

(6) سورة النحل ، الآية : 75 .

والتحبيب⁽¹⁾) ، وإن لفظ العبد مشتق من العبادة وهي الخضوع وهذا التعبير ورد في العديد من الآيات ونسبه الناس إلى الله (ﷻ) ولاسيما الأنبياء والصالحين والملائكة ، وأحياناً يؤدي معنى التلطف والاعزاز باعتبار أن الخضوع لله وهو الخضوع الحق الذي ليس فيه تلك الذلة والهوان كما في عبودية الإنسان لأخيه الإنسان⁽²⁾ .

ويبدو لنا من مجموع الآيات السابقة فضلاً عما أوردته مصادر التأريخ إن الموالى شكلوا طبقة اجتماعية كبيرة في مجتمع المدينة في العهد النبوي⁽³⁾ ، وإن غالبيتهم كانوا من غير العرب ، وهذا التنظيم الاجتماعي اقتضته ظروف تلك المرحلة حيث كان ضرورة اجتماعية لا غنى عنها للاعتماد عليهم للقيام بالكثير من الأعمال التي كانت يصعب على المجاهدين القيام بها لانشغالهم بأمر الجهاد ونشر الإسلام⁽⁴⁾ .

على أن هناك من الموالى من شارك في كثير من الغزوات وظهر براعة فائقة في القتال بين يدي رسول الله (ﷺ)⁽⁵⁾ ، وقد شهد بداراً عشرون مملوكاً ، ومنهم شقران وهو مملوك النبي (ﷺ) لم يسهم له بشيء وكان على الأسرى فاجزاه كل رجل له أسير ، فأصاب أكثر مما أصاب أي رجل من القوم⁽⁶⁾ .

وكان السبي احد أسباب وجود الأرقاء في المدينة على عهد النبي (ﷺ) وهم في الغالب من القبائل العربية ممن أفاء الله على رسوله ، ولم يكن اسر هؤلاء العرب لمجرد استرقاقهم بقدر ما كان يستهدف تحريرهم من ضغوط ربما كانت تمنعهم من دخول الإسلام داخل قبائلهم . ولذا نجد أنهم يعاملون معاملة إنسانية عالية فلم يكن يفرق بين الأم وابنها⁽⁷⁾ ، أو بينها وبين زوجها إذا كانت تريده أو يريدوها⁽⁸⁾ .

(1) دروزة ، عصر النبي ، ص 232-233 .

(2) المصدر نفسه، ص 233 .

(3) ابن حجر ، الإصابة ، 454/2 .

(4) المصدر نفسه ، 75/1 ، 231 ، 362 ، 58/2 .

(5) الواقدي ، المغازي ، 204/1 .

(6) المصدر نفسه ، 153/1 .

(7) ابن حجر ، الإصابة ، 214/2 ، 367 ، 466-467/3 .

لقد أكد القرآن الكريم على انعدام الطبقة في المجتمع المسلم بمعناه المتطرف ومفهومها الضيق كما في قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾⁽¹⁾ وأكد رسوله الكريم (ﷺ) على ذلك ونستطيع أن نرى ذلك من خلال مدلولات هذا الحديث للرسول الكريم : (إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه...) (2) .

لهذا نرى رسول الله (ﷺ) عندما خطب زينب بنت جحش ابنة عمته لمولاه زيد بن حارثة ، فاستنكفت من الزواج به وقالت أنا خير منه نسباً⁽³⁾ ، ثم عالج القرآن الكريم قضية الإماء والعبيد وجعلهم أخوة لساداتهم ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم من الواجبات والفروض ، باستثناء بعض القضايا الشرعية^(*) ، لهذا نراه يوصي بحسن معاملتهم كما في قوله تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا﴾ (4) .

لهذا نرى الرسول (ﷺ) ومعظم الصحابة كثيراً ما يمنون على الأسرى بالعق عند وصولهم إلى المدينة⁽⁵⁾ ، وكانت مهر السبايا العربيات يوازي مهر العربيات على عهد أبي بكر لإقتداء الصحابة بالرسول (ﷺ)⁽⁶⁾ .

(8) المصدر نفسه ، 452/3 .

(1) سورة الأنعام ، من الآية : 98 .

(2) ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، 632/1 .

(3) الطبري ، تفسيره ، 201/7 .

(*) كما ذكرت عن (المهر وحكم الشرع في عقوبة الزنا) ، ينظر : ص 252 ، ص 259 ، ينظر القرطبي ، تفسيره ، 144/5-145 .

(4) سورة النساء ، من الآية : 36 .

(5) ابن حجر ، الإصابة ، 490-489/1 ، 367/2 .

(6) ابن حبيب ، المنمق ، ص 505 .

وقد استحب أهل المدينة استعمال لفظ مولى فلان وفضلوه على قولهم عبد فلان وهو العبد المملوك ، كما يراد به أيضاً العبد المعتق⁽¹⁾ .

والموالي في الجاهلية كانوا بمعنى العسبة فلما دخلت العجم على العرب لم يجدوا لهم اسماً فسموهم بهذا الاسم⁽²⁾ ، والمولى موليان : مولى يرث ويورث فهو لأب ذؤو الأرحام ، ومولى يُورث ولا يرث فهو لأب العتاقة ، وهو الرقيق أو الأسير الذي تفك رقبتة بعته⁽³⁾ ، وقد أوصى به (ﷺ) : «ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً»⁽⁴⁾ .

ويوجد في المدينة موالى من الحبشة وتذكر الروايات إنهم عند قدوم رسول الله (ﷺ) لعبت الموالى من الحبشة بحرابهم فرحاً بقدومه إلى المدينة⁽⁵⁾ ، وعلى الرغم من أن الإسلام اعترف بالعبودية وكان الرسول (ﷺ) وكثير من الصحابة (رضي الله عنهم) يمتلكون الرقيق من الجنسين إلا أنه حاول تحريرهم من العبودية⁽⁶⁾ وحث المسلمين على عتق الرقاب كلما سنحت الفرصة كما في قوله تعالى : «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۖ فَكُّ رَقَبَةٍ»⁽⁷⁾ .

والعتق هو إزالة الملك وهي مشتقة من قولهم عتق الفرس إذا سُيف وعتق ، لأن الرقيق يتخلص بالعتق ويذهب حيث شاء وفي حديث عن البراء بن عازب عن

(1) ابن حجر ، الإصابة ، 548/3 .

(2) جواد علي ، المفصل ، 366/4 ؛ وكان العرب يسمون الفرس العجم (الحمراء) ، ويسموهم رقاب المزاد .

(3) المصدر نفسه ، 366/4 .

(4) سورة الأحزاب ، الآية : 5 ، ونزلت في زيد بن حارثة الذي تبناه الرسول ؛ ينظر الطبري ، تفسيره ،

46/22 .

(5) البخاري ، صحيح ، 258/3 ؛ السهودي ، وفاء الوفا ، 264/1 .

(6) ابن حجر ، الإصابة ، 286/4 .

(7) سورة البلد ، الآية : 12-13 .

الرسول (ﷺ) قال : (اعتق النسمة أن تفرد بعقها وفك الرقبة أن تعين في عتقها)⁽¹⁾ ، حتى جعل الإسلام من تحرير العبيد قربة وكفارة على المؤمن واعدّها من الأعمال الصالحة التي ترضي الله (ﷻ) كما جاء في قوله تعالى في كفارة القتل الخطأ :-

1- ﴿... فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ...﴾ (2) .

2- وقال في كفارة اليمين : ﴿... إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ...﴾ (3) .

3- وكذلك كفارة الظهار : ﴿... وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا...﴾ (4) .

وكذلك أوصى الله تعالى بالبر إليهم والعطف عليهم ضمن جملة من الشرائع الاجتماعية لأن الأعمال الصالحة لا تقتصر على العبادات .

﴿... وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ...﴾ (5) .

﴿... إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ

(1) ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، 146/5 .

(2) سورة النساء ، من الآية : 92 .

(3) سورة المائدة ، من الآية : 89 .

(4) سورة القصص ، من الآية : 3 .

(5) سورة البقرة ، من الآية : 177 ، وفي الرقاب : وهي فك الرقاب من العبودية وهم المكاتبون الذين

يسعون في فك رقابهم من العبودية بأداء كتاباتهم التي فارقوا عليها ساداتهم ، ينظر الطبري ، تفسيره

، 58/2 ؛ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال ، (ت911هـ) ، الدر المنثور ، دار الفكر ،

(بيروت-1993) ، ج 1 ، ص 416 .

وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ... لَا (1) .

إذن نستدل من هذه الآية : كثرة الرقيق في المدينة وإن بعضهم كان ينال سوء المعاملة ولا يحق لهم امتلاك الأموال لهذا نرى القرآن الكريم قد أوصى بهم خيراً ، وكان الموالي يزاولون بعض المهن والحرف الوضيعة التي كان العربي يأبى القيام بها من تلك الحرف الحجامة⁽²⁾ ، وكذلك حرفة عمل السيوف وبري النبال⁽³⁾ ، وكانت مارية سرية للرسول وهي ملك اليمين ، ويذكر ابن سعد⁽⁴⁾ : إن الرسول حرّم أم إبراهيم أي (مارية) ، وكفر يمينه بعد أن أنزل الله في الإيلاء : «أَقْدَ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحْلَةَ أَيْمَانِكُمْ ... لَا (5) ، وأنزل الله : «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ لَا (6) .

فالحرام حلال يعني في الإماء ، إذا قال الرجل لجاريته أنت عليّ حرام فليس بشيء ، وإذا قال لا أقربك فعليه الكفارة⁽⁷⁾ .

ولما ولدت مارية إبراهيم قال الرسول : اعتقها ولدها وقال : أيما أمة ولدت من سيدها فأنها حرة إذا مات إلا أن يعتقها قبل موته⁽⁸⁾ .

وكان الرسول (ﷺ) نفسه لديه عدد من العبيد أعتق أكثرهم ومنهم زيد بن حارثة ، واعتقه رسول الله وتبناه ، وكذلك أم أيمن بركة مولاة رسول الله وحاضنته

(1) سورة التوبة ، من الآية : 60 .

(2) ابن سعد ، الطبقات ، 444/1 .

(3) ابن حجر ، الإصابة ، 649/3 .

(4) الطبقات ، 153-154/8 ؛ البلاذري ، انساب الأشراف ، 448-450/1 .

(5) سورة التحريم ، من الآية : 2 .

(6) سورة التحريم ، الآية : 1 .

(7) ابن سعد ، الطبقات ، 154/8 .

(8) المصدر نفسه ، 155/8 .

ورثها من أبيه واعتقها ، وثوبان و (صالح) : وهو شقران ، وجارية يقال لها روضة ... وغيرهم⁽¹⁾ .

ومن الممكن أن يشتري الرقيق نفسه من مالكة إذا وافق المالك على ذلك وكان من طرائق هذا الشراء (المكاتبة) وهي تعهد العبد بإيراد مبلغ معين إلى سيده ضمن مدة معينة ثمناً لنفسه والسماح للعبد بالتكسب لأجل ذلك⁽²⁾ ، وقصة سلمان الفارسي^(*) خير مثال لوجود هؤلاء الأرقاء في مجتمع المدينة ، وهناك في كتب الفقه الإسلامي والحديث تفاصيل في أحكام الرقيق ومعاملتهم وتحريرهم وغير ذلك من التفاصيل التي يطول شرحها⁽³⁾ .

وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ...﴾⁽⁴⁾ .

(1) المصدر نفسه ، 423/8 ، ولمزيد من الإطلاع ينظر ابن حبيب ، المحبر ، ص 128-129 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 117/18-125 .

(*) سلمان الفارسي : هو سلمان ابن الإسلام أبو عبد الله الفارسي سابق الفرس إلى الإسلام كما قال رسول الله (ﷺ) وقد صحب الرسول وحدث عنه وكان لبيباً عاقلاً وقد أشار على الرسول بفكرة حفر الخندق وكان فارسياً من اصبهان وكان أبوه دهقاناً وكان مجوسياً ثم اتبع المسيحية وهاجر إلى الشام ثم إلى عمورية وظل يبحث عن أفضل صاحب دين إلى أن ظلم وبيع عبداً وحمل إلى يثرب فاشترته رجل يهودي ظل على خدمته حتى سمع برسول الله (ﷺ) واسلم على يده ونصحه بأن يكاتب اليهود على عتقه بمبلغ من المال ونخل وقد ساعده إخوانه المسلمون ورسول الله على الإيفاء بعقده وشارك في كل المعارك إلا بدر واحد بسبب رقه . ينظر: أبو نعيم الاصبهاني ، احمد بن عبد الله ، (ت435هـ) ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ط4 ، دار الكتاب العربي ، (بيروت-1405هـ) ، ج1 ، ص185 ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 510/1-555 .

(3) ينظر البخاري ، صحيح ، 245/1 ، 47/2 ، 756 ، 796 ، 936 ، مالك بن انس ، (ت179هـ) ، الموطأ ، تحقيق: فؤاد عبد الباقي ، (القاهرة-1951) ، ج1 ، ص283 ، ج2 ، ص453 ؛ ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، 146/5 .

(4) سورة النور ، من الآية : 33 .

وفي المدينة فئة من الموالي يعرفون باسم المولدين : وهي تسمية تطلق على العربي غير المحض وقيل هو ولد عند العرب ونشأ مع أولادهم وتأدب بأدبهم وكانوا ينسبون إلى بلدانهم أو قبائلهم فيقال مولدي مكة ومولدي الشراة ومولدي مزينة ، وكانوا يباعون مثل أي رقيق⁽¹⁾ ، وقد ظهر العديد منهم من المغنين والمغنيات في العصر الأموي والعباسي وقسم منهم كان رفيع النسب امتاز بالفن والأدب⁽²⁾ ، وفي مجتمع المدينة أيضاً عناصر دينية أخرى غير اليهود ومنهم :-

العناصر الدينية غير اليهودية في المدينة

أ- النصارى :-

لقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة ورد فيها ذكر النصارى وخاصة في السور المدنية التي نزلت على رسول الله (ﷺ) في المدينة وفيها إشارة إلى أن أهل المدينة كانوا على معرفة واتصال مباشر بهم كما في قوله تعالى :

1- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ... لَا (3) .

وكما نعلم سابقاً أن هذه الآية نزلت في وفد الأنصار المبايع لرسول الله في بيعة العقبة الثانية ، فساهم (⇒) بأنصار الله ورسوله وأمرهم أن يكونوا كأَنْصار عيسى ابن مريم (▶) ، وهنا إشارة واضحة إلى كونهم ذوي معرفة بهم فليس من المعقول أن يستخدم (⇒) هذا المثال والاوز والخزرج يجهلون معرفتهم ، ومن الملاحظ أن ذكر النصارى جاء مقترناً مع اليهود في اغلب الآيات المدنية كما في قوله تعالى :

(1) البستاني ، المعلم بطرس ، (ت1300هـ) ، كتاب محيط المحيط ، (بيروت-1286هـ) ، ج2 ، ص27 ، (مادة ولد) .

(2) الاصفهاني ، الأغاني ، 128/7 ، وما بعدها .

(3) سورة الصف ، من الآية : 14 .

2- «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى...» (1) .

3- «وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ...» (2) .

4- «وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ...» (3) .

5- «وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا...» (4) .

6- «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ...» (5) .

وتذكر الروايات التاريخية أن المبشرين بالديانة المسيحية كانوا يجوبون الجزيرة العربية وإنهم قد وردوا مكة لذلك فليس من المعقول أن يذهب هؤلاء إلى مكة ولا يذهبون إلى المدينة وهي اقرب من مكة إلى الشام مركز النصرانية وحلفاء الروم المسيحيين ، وخاصة أن دولة الروم قد شجعت على التبشير هناك لكسب العرب إلى صفها من الناحية الدينية ضد الفرس في قتالهم معهم (6) .

ومن المحتمل أيضاً أن هذه الآيات عنت بهؤلاء النصارى أن يكونوا عرباً متنصرين من أهل المدينة كما كان الأمر في مكة أو عرباً من غير أهلها قد جاءوا وقاموا فيها لظروف اقتصادية وغير اقتصادية (7) ، وتذكر الروايات التاريخية أن أبا قيس بن أبي انس من بني النجار كان رجلاً قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة واعتزل الحائض من النساء وهم بالنصرانية ثم

(1) سورة البقرة ، من الآية : 111 .

(2) سورة البقرة ، من الآية : 113 .

(3) سورة البقرة ، من الآية : 120 .

(4) سورة البقرة ، من الآية : 135 .

(5) سورة المائدة ، من الآية : 18 .

(6) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 332 .

(7) دروزة ، عصر النبي ، ص 125 .

امسك حتى قدم رسول الله (ﷺ) المدينة فاسلم⁽¹⁾ ، وان أبا عامر عبد عمرو بن صيفي بن النعمان من بني عمرو ابن عوف من الاوس ، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة وكان سيداً قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح فلما قدم النبي (ﷺ) المدينة كان له معه خطب طويل فخرج في خمسين غلاماً فمات على النصرانية بالشام⁽²⁾ .

وكان للتجار النصارى الذين يأتون من بلاد الشام بكثرة إلى يثرب اثر كبير في نشر النصرانية في المدينة ، وفي رواية ذكرها الطبري⁽³⁾ ، أن رجلاً من الأنصار من بني سالم بن عوف له ابنان فلما قدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت فدعوا ابني سالم بن عوف إلى النصرانية فتنصروا وخرجوا معهم إلى الشام ، فلما قدم الرسول (ﷺ) إلى المدينة واسلم أهلها ومنهم أبو الحصين فسأل رسول الله (ﷺ) على إرغام ولديه على ترك النصرانية ، فنزل فيه قوله تعالى : «إِذَا كَرِهَ الْغَالِبِينَ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»⁽⁴⁾ .

وفي بعض الآيات التي ورد فيها ذكر النصارى قد يكون استطراداً أو تعبيراً متماشياً مع اليهود ، إلا إنها تحتوي على دلالات صريحة على أن النبي قد التقى بطوائف مختلفة من النصارى في أوقات متفاوتة ودعاهم للإسلام⁽⁵⁾ ، كما في الآية التالية :-

1- «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» ⇒ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ⇒ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ

(1) ابن إسحاق ، السيرة ، 356/2 .

(2) المسعودي ، مروج الذهب ، 88/1 .

(3) تفسير الطبري ، 15/3 . في رواية عن السدي .

(4) سورة البقرة ، الآية : 256 .

(5) دروزة ، عصر النبي ، ص124 .

وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهُلُ
فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ⇒ إِنَّ هَذَا لَهُوَ
الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) .

ويذكر أصحاب السير والمفسرون عدة روايات متشابهة مفادها ، أن وفداً من
نصارى نجران قدموا إلى المدينة فيهم العاقب والسيد وهما سيدان نجران واسقفيهم
وقد حاجوا رسول الله (ﷺ) في عيسى (ﷺ) فسألوه عن قوله في عيسى قال : هو
عبد الله وروحه وكلمته ، قالوا : لا بل هو الله وكل آدمي له أب فما شأنه لا أب
له ، وسألوه أيضاً أن ينزل عليهم معجزات مثل عيسى ، فأنزل (ﷺ) هذه الآيات
احتجاجاً على قولهم وإن خلقه من غير أب كخلق آدم من غير أم ولا أب ودعاهم
للمباهلة أي الملاعنة على من يكذب (2) ، وكذلك انزل فيهم قوله تعالى :

2- «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ
مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ
رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ⇒
لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ
إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ
لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (3) .

3- «إِنَّمَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ
كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4) .

وإذا كانت ظروف الشام قد حملت بعض النصارى غير العرب على النزوح إلى
مكة والإقامة بها وكذلك قيام تجار مكة بشراء بعضهم من الرقيق لحاجتهم

(1) سورة آل عمران ، الآية : 59-62 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق1/573 ؛ الطبري ، تفسيره ، 293/3-294 .

(3) سورة المائدة ، الآية : 72-73 ؛ ينظر الشهرستاني ، الإمام أبي الفتح عبد الكريم ، (ت548هـ) ،

الملل والنحل ، ط1 ، مكتبة المثنى ، (بغداد-1321هـ) ، ج1 ، ص95-99 ، وفيه تعريف بكفرهم .

(4) سورة المائدة ، الآية : 75 .

الاقتصادية فمن الممكن ألا يكون هذا الأمر مقتصرًا على مكة ولاسيما أن المدينة أقرب إلى الشام من مكة مما جعل النازحين من الاسرائيليين من الشام يفضلون الإقامة في المدينة كما ذكرنا سابقاً فتذكر إحدى الروايات أن صانع منبر الرسول (ﷺ) كان نجاراً رومياً اسمه يا قوم وكان مقيماً في المدينة⁽¹⁾ ، ويجد في المدينة على عهد النبي (ﷺ) بعض النصارى الذين بقوا على دينهم ، وقد عرض الرسول على بعضهم الإسلام ولم يفرضه عليهم فأبوا إلا النصرانية فقسم أموالهم نصفين فأخذ نصفها وترك لهم حريتهم الدينية وبقى بعضهم متردداً بين الإسلام والنصرانية ثم اسلموا على عهد أبي بكر (رضي الله عنه)⁽²⁾ ، وكانت بين غساسنة الشام وقبيلتي الاوس والخزرج اليثربيين صلات نسبية ومحالفات قبل الإسلام لأن الجميع يرتبطون بقبيلة الازد اليمانية وقد نصرهم وأمدوهم بجند من الشام خلال صراعهم مع اليهود وربما بقي الكثير من هؤلاء الجند ومعظمهم من المسيحيين في يثرب ولم يعودوا لبلادهم بعد إنجاز مهمتهم وربما حاول البعض من هؤلاء الجند التبشير بالديانة المسيحية بين أبناء عموماتهم .

وقد بقيت هذه العلاقات الطيبة بين الغساسنة والايوس والخزرج حتى بعد انتشار الإسلام في المدينة فكانت هدايا جيلة بن الايهم مثلاً لا تنقطع عن شاعر النبي حسان بن ثابت على الرغم من دخوله الإسلام وانقطاعه عنهم⁽³⁾ ، لتحريمه (ﷺ) موالاتهم كما جاء في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾⁽⁴⁾ .

كما تذكر الروايات أن كعب بن مالك الشاعر الخزرجي حين تخلف عن غزوة تبوك وقاطعه رسول الله (ﷺ) والمسلمون ، أرسل إليه ملك غسان وافد من الشام

(1) دروزة ، عصر النبي ، ص125 ، هامش الصفحة .

(2) ابن حجر ، الإصابة ، 1/236 ، 3/298-300 .

(3) الاصفهاني ، الأغاني ، 6/14 ؛ ينظر د. محمد طاهر درويش ، حسان بن ثابت ، ص19 .

(4) سورة المائدة ، من الآية : 51 .

برسالة يبلغه فيها برغبته في قدوم كعب إلى بلاط الغساسنة لإكرامه ومواساته⁽¹⁾ ، وتدل هذه الرواية على قوة العلاقة بين الطرفين وسهولة وسرعة وصول أخبار أهل المدينة إلى بلاد الشام ، وقد وجه (⇒) دعوته لليهود والنصارى للإيمان بدعوة الرسول (⇨) كما جاء في قوله تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ...﴾⁽²⁾.

وقوله تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ...﴾⁽³⁾ .

ثم يصف (⇒) اقرب الناس مودة للمسلمين ولرسوله الكريم (⇨) هم النصارى وإنهم ذو أخلاق دمثة وعواطف رقيقة وغير راغبين في إثارة الجدل والخصومة⁽⁴⁾ : ﴿الَّذِينَ أَشَدَّ النَّاسَ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ⇨ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾⁽⁵⁾ .

(1) ابن هشام ، السيرة ، ق 534/2 .

(2) سورة المائدة ، من الآية : 15 .

(3) سورة المائدة ، من الآية : 19 .

(4) دروزة ، عصر النبي ، ص 126 .

(5) سورة المائدة ، الآية : 82-83 .

(3) تفسير الطبري ، 4-2/7 والقسيسون جمع قس وهم العباد من النصارى أما الرهبان فهو جمع راهب وهم الذين يرهبون الله في الأديرة والصوامع وإن منهم علماء يكتبهم وأهل تلاوة .

(*) الحيرة: وهي مدينة على بعد ثلاثة أميال من موضع يقال له النجف وكانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية حيث اتخذها المناذرة عاصمة لهم . ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 328/2 .

ويذكر الطبري⁽¹⁾ قائلاً : قد يكون أريد بهم وفد النصارى من الحبشة الذي أرسلهم النجاشي لمقابلة الرسول (ﷺ) وقد يكون أريد به قوماً كانوا على شريعة عيسى فأدركهم الإسلام فأسلموا لما سمعوا القرآن لما عرفوا أنه الحق ولم يستكبروا ، وتذكر الروايات أن معظم النصارى الذين جاؤوا إلى يثرب لم يستقروا بصفة دائمة في المدينة وإنما كانوا يأتونها لإنجاز بعض المهام التجارية ، ومنهم وفد من أهل الحيرة^(*) حيث مركز النصرانية إلى ما قبيل الإسلام ، وكان بينهم وبين عمر بن الخطاب (◀) شراكة في تجارة البز (الثياب)⁽²⁾ ، ويمكن الاستنتاج من الآيات المدنية في القرآن الكريم التي أوردنا ذكرها ، سواء عن طريق توجيهه (⇒) الخطاب للنصارى عامة وبشكل مباشر أو الإشادة بموقف بعضهم الودي من دعوة النبي (ﷺ) أو تعنيف بعضهم على مواقفهم الجحودية من الدعوة والرد على دعواهم الباطلة في المسيح (▶) ، وكذلك تدعيم هذا الموقف ببعض الروايات التاريخية على أنهم كانوا طبقة وان لم تكن متكثلة أو كبيرة مثل اليهود سواء كانوا عرباً من أهل المدينة أو عرباً متنصرين من غير أهلها جاؤوا المدينة لأسباب اقتصادية أو غيرها أو قد يكون قسم منهم من أصول رومية أو سريانية أو أقباط أو عجم⁽³⁾ ، مما كان لجميع هؤلاء اثر في عقائد العرب وأديانهم وأفكارهم وان لم يكن هذا الأثر الكبير إلا أنه كان له صدى مسموعاً في آيات القرآن الكريم ، وقد ظل الرسول (ﷺ) على علاقته الطيبة مع المسيحيين زمناً طويلاً⁽⁴⁾ ، خصوصاً وإنهم لم يقفوا موقفاً معادياً ولم يتآمروا عليه كما فعلت اليهود ، ولكن الموقف كما يبدو قد تغير بعد ذلك ونستطيع أن نلاحظ ذلك جلياً من خلال آيات سورة التوبة ، التي جاء معظمها موضحاً سلسلة الأحداث والمواقف الخاصة بغزوة تبوك التي قادها الرسول (ﷺ) بنفسه كما جاء في قوله تعالى :

(4) ابن حجر ، الإصابة ، 300-298/3 .

(3) دروزة ، عصر النبي ، ص 125 .

(4) منتجو مري وات ، محمد في المدينة ، ص 487 .

1- «اقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ» (1) .

2- «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» (2) .

3- «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» ⇒ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» (3) .

4- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ...» (4) .

ب- الأحناف :-

هم جماعة من عرب الحجاز من قبائل متفرقة (5) ، فمنهم من كان من مكة ومنهم من كان من يثرب ومنهم من كان من مناطق الحجاز المختلفة (6) ، كانوا قد ألموا بالكتب السماوية من صحف وزبور ومجلة لقمان فاستنارت عقولهم ، فأنفوا أن

(1) سورة التوبة ، الآية : 29 .

(2) سورة التوبة ، الآية : 30 .

(3) سورة التوبة ، الآية : 32-33 .

(4) سورة التوبة ، من الآية : 34 .

(5) جواد علي ، المفصل ، 508/6 .

(6) ابن حبيب ، المحبر ، ص171 ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، ص28 قد أورد أسماء الأحناف .

يظلوا يعبدون ما يعبد إباؤهم ، فسخروا من عبادة الأصنام في قومهم⁽¹⁾ ، وثاروا عليها وعلى المثل الخلقية الفاسدة التي كانت سائدة في مجتمعهم قبل مبعث النبي (ﷺ) والتي تمثلت في الإشراف بالله ، واتخاذهم معبوداتهم شفعاء أولياء لهم ، وشرب الخمر ولعب الميسر وأكل الميتة ووآد البنات⁽²⁾ ، وإنهم في سبيل الحق تحملوا المشاق والأسفار والصعاب إلى أعالي الحجاز وبلاد الشام وأعالي العراق أي المراكز النصرانية ليسألوا الرهبان وأحياناً الأبحار فأشاروا عليهم بوجوب البحث والتأمل في دين إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)⁽³⁾ ، فمنهم من تنصر ومنهم من أخذ يتعبد على ملة شريعة إبراهيم (ﷺ) أو ما ظنه كذلك من بحث وتأمل من أجل الوصول للتوحيد الصحيح الذي لا شائبة فيه حنيفاً كما فعل النبي إبراهيم (ﷺ) كما في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۖ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۖ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۚ﴾⁽⁴⁾ ، ثم قوله : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽⁵⁾ .

ومعنى حنف : أي مال وهي الميل عن الضلال إلى الاستقامة والحنيف هو الذي يميل إلى الحق⁽⁶⁾ ، وقيل هو الذي يستقبل البيت الحرام أو الحاج أو من

(1) ابن حبيب ، المحبر ، ص 171 ، وكان زيد بن عمرو بن نفيل (أول من عاب على قريش ما هم عليه من عبادة الأوثان) .

(2) المصدر نفسه ، ص 171 .

(3) جواد علي ، المفصل ، 508/6 .

(4) سورة الأنعام ، الآية : 74-76 .

(5) سورة الأنعام ، الآية : 79 .

(6) ابن منظور ، لسان العرب ، 44/10 ، 56/9 ؛ ينظر: الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، 130/3 .

يختن ، لأن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين إبراهيم (►) غير هذين الأمرين وأضاف البعض إليها اعتزال الأصنام والاعتسال من الجنابة⁽¹⁾ .

كما في قوله تعالى : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾⁽²⁾ .

وفي رواية عن ابن عباس هذه الكلمات بالطهارة خمس في الرأس وخمس في الجسد ، والتي في الجسد هي تقليم الأظافر وحلق العانة والختان ونتف الابط وغسل اثر الغائط⁽³⁾ ، ويضيف الطبري⁽⁴⁾ ، قائلاً : لابد للحنيف من الاستقامة على ملة إبراهيم وإتباعه عليها .

وتذكر الروايات أن الجاهليين جميعاً كانوا على دين إبراهيم موحدون يعبدون

الله جل جلاله وحده لا يشركون به أحد ، كما في قوله تعالى :-

1- ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽⁵⁾ .

2- ﴿أَقُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽⁶⁾ .

3- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ⇒ مُنْيَبِيــــنَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽⁷⁾ .

(1) المصدر نفسه ، 44/10 .

(2) سورة البقرة ، الآية : 124 .

(3) الطبري ، تفسيره ، 105/3 وما بعدها .

(4) المصدر نفسه ، 105/3 .

(5) سورة النحل ، الآية : 123 .

(6) سورة الأنعام ، من الآية : 161 ؛ وينظر أيضاً في نفس المعنى سورة يونس ، الآية : 104-105 .

(7) سورة الروم ، الآية : 30-31 .

فكان أول من غير دين إسماعيل (►) فنصب الأوثان وسيب السائبة ووصل الوصيعة وبحر البحيرة وحمى الحامية هو عمرو بن لحي بن حارثة بن عمر بن عامر الخزاعي⁽¹⁾ ، وقد وردت لفظة (حنيفاً) و(حنفاء) في القرآن الكريم في أكثر من موضع سواء في الآيات المكية والمدنية على السواء وكما في قوله تعالى :
 «وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»⁽²⁾ ، كما وردت الحنفية في آيات أخرى مرادفة للإسلام كما في قوله تعالى : «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» ⇒ «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ»⁽³⁾ .

وفي هذه الآية تكذيب منه (⇒) لدعوى اليهود والنصارى بأن النبي إبراهيم (►) على ملتهم ، لأنهم مخالفون لدينه ، وإن أمة النبي محمد (⇒) (المسلمين) ، هم على قبلته وعلى منهاجه وشرائعه دون سائر الملل والأديان وعنى هنا بحنيف مستقيماً متبعاً لأمر الله وطاعته بملازمة طرق الهدى وهي ما أمر به (⇒) من أحكام⁽⁴⁾ ، تعرض هذه الآيات والتي بعدها جدلاً كبيراً دار بين النبي من جهة وبين اليهود والنصارى من جهة أخرى ونرى في الآية التالية اشتداد الجدل بين الفريقين .

كما في قوله تعالى : «وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» ⇒ «إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» ⇒ «وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ

(1) ابن الكلبي ، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب ، (ت204هـ) ، الأصنام ، تحقيق: احمد زكي ،

(القاهرة- د.ت) ، ص7 ؛ الأزرقى ، أخبار مكة ، 74/1 .

(2) سورة البقرة ، من الآية : 135 .

(3) سورة آل عمران ، من الآية : 67-68 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 305/3 .

إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ⇒ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ⁽¹⁾ .

وفي هذه الآية استمرار في تكذيبه (⇒) لليهود والنصارى على لسان نبيه محمد (ﷺ) بالأدلة والبراهين ، فهؤلاء المحاججون لم يكونوا حاضرين عند توصية يعقوب لبنيه لعلمو الحق ولما جادلوا فيه وأجابه أولاد يعقوب (►) لأبيهم بأنهم يعبدون معبودك ومعبود آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهً واحداً مسلمين له بطاعتنا وعبادتنا إياه⁽²⁾ ، ويبدو أن الجدل والنقاش مستمر بين هؤلاء والمسلمين ، ويذكر الدكتور محمد عزة دروزة⁽³⁾ ، انه قد يكون بعض الجدالات قد دارت بين مستنيري العرب أي الأحناف وبين أهل الكتاب من يهود ونصارى حيث شكل هؤلاء وخاصة أحبار اليهود ورهبان النصارى احد المراجع المهمة للعرب في الجاهلية بادعائهم بنبوتهم وإتباعهم ملته فالتوراة هي أول من ذكرت النبي إبراهيم (►) وكما ذكرنا من وجود اليهود والنصارى في مكة والمدينة ، وربما أن أهل المدينة اخذوا الحنفية من يهود ونصارى المدينة نفسها أو عن طريق ذهابهم إلى مكة للحج أول وجود صلات كثيرة بينهم والدليل على ذلك ما ذكرناه في التمهيد عن اتصال النبي (ﷺ) بأكثر من شخص من أهل يثرب وعرض عليه الإسلام ، ويبدو من سورة آل عمران إن الجدل مستمر بين المسلمين وأهل الكتاب كما في قوله تعالى : «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ⇒ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»⁽⁴⁾ .

(1) سورة البقرة ، الآية : 130-133 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 562/1 .

(3) عصر النبي ، ص 429 .

(4) سورة آل عمران ، الآية : 65-66 .

وأيضاً في قوله تعالى : ﴿...فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۚ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (1) .

ويبدو لنا من خلال هذه الآيات المكية والمدنية بأن هؤلاء الأحناف أي المتعبدین على ملة النبي إبراهيم (ﷺ) كانوا طبقة وان لم تكن كبيرة ولكن لها أثرها وصوت محسوس نستطيع أن نلتسمه من خلال الإشادة والحفاوة البالغة التي أشار إليها القرآن الكريم ، ومن كان على هذه الملة في المدينة ، كما تذكر بعض المصادر التي تضاربت في جعل هؤلاء مرة من الأحناف ومرة من النصارى ، ومنهم أبو عامر الاوسي الراهب وهو عبد عمر بن صيفي بن النعمان بن عمرو بن عوف من الاوس ، وقد تم ذكره في قصة بناء المسجد ، وعند قدوم النبي (ﷺ) المدينة ، كان له معه خطبٌ طويل وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح . وسأل رسول الله (ﷺ) عما جاء به ؟ فأجابه الرسول (ﷺ) : جئت بالحنفية دين إبراهيم . فقال : أنا عليها ، فرد عليه الرسول (ﷺ) قائلاً : ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها ، وسماه رسول الله بالفاسق (2) .

ومن الأحناف أيضاً أبو قيس صرمة بن أبي أنس وهو من بني النجار وقد ترهب ولبس المسوح ، وهجر الأوثان ، فلما كان قدوم الرسول (ﷺ) المدينة أسلم وحسن إسلامه (3) ، ويقال انه هم بالنصرانية وأمسك عنها ، وهو الذي نزلت فيه آية السحور : ﴿...وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ...﴾ (4) .

(1) سورة الحج ، من الآية : 30-31 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق/2/67 ؛ الطبري ، تفسيره ، 64-65 .

(3) ابن قتيبة ، المعارف ، ص 28 .

(4) سورة البقرة ، من الآية : 187 ؛ ينظر الطبري ، تفسيره ، 97/2 .

وهو القائل في رسول الله (ﷺ) : ثوى في قريش بضع عشرة حجة بمكة لا يلقى صديقاً مؤاتياً⁽¹⁾ .

ومن أحناف المدينة أيضاً يذكر ابن سعد⁽²⁾ ، أبا الهيثم ابن التيهان اليثربي وهو مالك بن بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاة حليف لبني عبد الاشهل وكان يكره الأصنام في الجاهلية ويؤفف بها ويقول بالتوحيد ، ويذكر ابن سعد⁽³⁾ ، أن اسعد ابن زرارة أيضاً قال بالتوحيد وهو ابن عُدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار ويكنى أبا إمامة ، ويذكر انه هو وذكوان بن قيس أول من اسلم وأول من قدم بالإسلام المدينة⁽⁴⁾ ، وان إيمانه بالتوحيد قبل الإسلام هو الذي دفعه للإسراع بالدخول على الإسلام ، ويكون أول من اسلم من الأنصار ومن الآيات المدنية التي ورد فيها إشارات إلى الأحناف ، كما في قوله تعالى : «أَقْدَ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ...»⁽⁵⁾ .

وتذكر الروايات أنهم كانوا طرازاً من النساك زهدوا في الحياة الدنيا وانصرفوا إلى التعبد للإله الواحد الأحد اله إبراهيم وإسماعيل ، وحبسوا أنفسهم عن الناس في الكهوف والبراري ، يتحنثون بها ويتعبدون لما تتميز به هذه المواقع من هدوء وسكون⁽⁶⁾ ، ويذكر أن الرسول (ﷺ) نفسه كان يتحنث قبل بعثته ونزول الوحي عليه في الغار على طريقة الأحناف .

(1) المسعودي ، مروج الذهب ، 88/1 .

(2) الطبقات ، 448-447/3 .

(3) المصدر نفسه ، 448/3 ، 608/3 .

(4) المصدر نفسه ، 608/3 .

(5) سورة الممتحنة ، من الآية : 4 .

(6) جواد علي ، المفصل ، 455/6 .

وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم كما في قوله تعالى :

﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ (1) ، وكذلك سورة الأنعام (*) .

وتعد مرحلة التحنث هي المرحلة المتطورة للمعتقدات الدينية إلى الشريعة الحق إلى أن جاء النبي محمد (ﷺ) بدينه القويم والذي كان اقرب الأديان إلى دين النبي إبراهيم (ﷺ) .

ج - الصابئة والمجوس :-

ورد ذكر الصابئة ثلاث مرات في القرآن الكريم في إشارة واضحة إلى وجود هذه الطائفة في عصر الرسول (ﷺ) وانه معروف لدى العرب سواء من أهل مكة والمدينة ، وخاصة أن الآيات الثلاث الواردة في القرآن الكريم هي آيات مدنية نزلت على الرسول الكريم في المدينة .

فكان ورودها في سورة البقرة بعد اليهود والنصارى وهم موحدون وفي سورة المائدة والحج ورد ذكرهم بين اليهود والنصارى ، مما يؤكد أنهم كانوا موحدين شأنهم شأن الديانتين المذكورتين كما يؤكد وجود هذه الطائفة بشكل من الأشكال (2) .

ويذكر الدكتور جواد علي (3) : ان دلالة ذكر الصابئة في القرآن إنهم جماعة كانت على دين خاص وأنها طائفة مثل اليهود والنصارى ، ويضيف أن أهل الأخبار ربطوا بين الصابئة المذكورين في القرآن وبين صابئة العراق وجعلوهم طائفتين في الأصل ، طائفة هم صابئة حنفاء من أصحاب النبي إبراهيم ممن كانوا بحران (*) ، وصابئة مشركون وهم من فسدوا من الصابئة فأشركوا واعتقدوا بالكواكب ونسب

(1) سورة الضحى ، الآية : 7 .

(*) الآية : 161 ، التي مر ذكرها في بداية الموضوع .

(2) دروزة ، عصر النبي ، 420-426 .

(3) المفصل ، 702/1 .

(*) حران : وهي مدينة عظيمة مشهورة من قصبة ديار مضر بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان وعلى طريق الموصل والشام والروم وقيل سميت (بهاران) ، أخي إبراهيم (ﷺ) لأنه أول من بناها فعربت فقيل حران ، وقيل أنها أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان وكانت منزلاً للصابئة وهم الحرانيون . ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 235/2 .

إليهم عبادة الملائكة⁽¹⁾ ، ولا يستبعد أن يكون من الصابئة أو جاؤوا تجاراً من العراق أو وقعوا بأيدي النخاسين فاشتراهم تجار وجاؤوا بهم إلى مكة⁽²⁾ ، وهذا الأمر لا يستبعد عن يثرب أيضاً ، والآيات التي ورد فيها ذكر الصابئة في القرآن الكريم هي:

1- «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»⁽³⁾ .

2- «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»⁽⁴⁾ .

3- «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»⁽⁵⁾ .

والصابئون جمع صبائي وقيل صاب من صبأت النجوم إذا طلعت⁽⁶⁾ ، ويذكر ابن الجوزي⁽⁷⁾ ، في الصابئة سبعة أقوال منها أنهم صنف من النصاري ألين قولاً منهم وهم السائحون المحلقة أوساط رؤوسهم وقال أيضاً هم قوم بين النصاري والمجوس ليس لهم دين ، وفي قول آخر له هم فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور ويقولون لا إله إلا الله .

(1) الطبري ، تفسيره ، 129/17 .

(2) جواد علي ، المفصل ، 702/1 .

(3) سورة البقرة ، الآية : 62 .

(4) سورة المائدة ، الآية : 69 .

(5) سورة الحج ، من الآية : 17 .

(6) القرطبي ، تفسيره ، 434/1 .

(7) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ، (ت597هـ) ، زاد المسير في علم التفسير ، ط3 ، المكتب

الإسلامي ، (بيروت-1404هـ) ، ج1 ، ص92 .

ويذكر القرطبي⁽¹⁾ ، أيضاً روايات متعددة عن الصابئة ومنها إنهم فرقة من أهل الكتاب بين النصارى واليهودية ولا بأس بذبائهم ومناكحة نسائهم إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح (►) ، أما الشهرستاني⁽²⁾ ، فقد افرد فصلاً مسهباً لشرح أقوالهم وهو مَسَلَّكُهُمْ مع الروحانيين وإن مدار مذهبهم التعصب لهم أي الملائكة ودعوتهم إلى الاكتساب .

ويذكر الالوسي⁽³⁾ ، في تفسيره أن الصابئة هم قوم مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين واتخاذهم وسائط والفرقة الأولى منهم عبدة الكواكب والثانية هم عبدة الأصنام ، وقد زودنا المسعودي⁽⁴⁾ ، بمعلومات واسعة عن الصابئة الحرائيين في كتابيه التنبيه والأشراف ومروج الذهب وخلاصة ما قال : إن الصابئة منسوبون إلى صابئي بن متوشلح بن إدريس على الحنفية الأولى وقيل الصابئي بن ماري وكان في زمن إبراهيم الخليل (►) .

وقد جاء في اللغة أن الصبؤ والصابي معناه الخروج من شيء إلى شيء وخرج من دين إلى دين غيره⁽⁵⁾ ، أي مال أو انحرف كما في قوله تعالى :
﴿...وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنْذَرْنَاهُمْ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾
الْجَاهِلِينَ لَا⁽⁶⁾ .

(1) تفسير ، 434/1 .

(2) الملل والنحل ، 44/2 .

(3) أبو الفضل محمود ، (ت1270) ، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني ، دار إحياء التراث العربي ، (بيروت- د.ت) ، ج1 ، ص279 .

(4) أبو الحسن علي بن الحسين ، (ت346هـ) ، التنبيه والأشراف ، صححه وراجعاه عبد الله إسماعيل الصاوي ، دار الصاوي للطبع والنشر والتأليف ، (مصر-1938) ، ج3 ، ص118 ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، 391/2-394 .

(5) ابن منظور ، لسان العرب ، 102/1 .

(6) سورة يوسف ، من الآية : 33 .

وقد ذكر ابن خلكان⁽¹⁾ ما قاله المسعودي وأضاف ان الصابئي عند العرب من خرج عن دين قومه ، ولذلك كانت قريش تسمي رسول الله (ﷺ) صابئاً لخروجه عن دين قومه ، وعند إسلام عمر بن الخطاب (ؓ) نادى جميل بن معمر الجمحي في قريش ألا ان ابن الخطاب قد صبأ ، فأجاب عمر : كذب ولكني أسلمت⁽²⁾ ، ورجح محمد عزة دروزة⁽³⁾ ، ان الصابئة والحنفاء شيء واحد أو طبقة واحدة وإنهم أولئك الذين تخلوا عن دين الإباء الشرقي أو الوثني من مستنيري العرب ، وأضاف ان ربط الصابئة الذين ذكروا في القرآن مع صابئة حران والعراق (الصُّبَّة) ، أو الصابئة في عهد المأمون يعد تحريفاً وتجاوزاً متأخراً عن الإسلام بقرنين أو أكثر ، لأن هذه الكلمة عربية الأصل والاشتقاق ، وإنها كانت تستعمل في بيئة النبي (ﷺ) وتطلق على الذين كانوا ينحرفون عن دين آبائهم من العرب⁽⁴⁾ ، وأورد ابن كثير⁽⁵⁾ ، عن الصابئة الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم رواية نستدل منها على تفسير معقول لورودها مع الفرق الموحدة ، بالإضافة إلى ما ذكره الطبري عنهم : الصابئة : (هم فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور . والثانية : ان الصابئي هو الذي يعرف الله وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً)⁽⁶⁾ .

ويبدو ان ما ذكر عن الصابئة في القرآن هم صابئة حران الموحدون وقيل سميت بـ(هاران) ، نسبة إلى إبراهيم (ﷺ) لأنه أول من بناها فعربت ف قيل (حران)⁽⁷⁾ ، لذلك فأننا نجد ان معظم المفسرين⁽⁸⁾ يقولون في تفسير الآيتين : «فَأَمَّنَ لَهُ

(1) أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر ، (ت681هـ) ، وفيات الأعيان وأنباء ابناء

الزمان ، تحقيق: د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، (بيروت-1968) ، ج1 ، ص54 .

(2) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 34/2 .

(3) عصر النبي ، ص426 .

(4) دروزة ، عصر النبي ، ص422 .

(5) تفسيره ، 104/3 ، الرواية الأولى عن السدي والضحاك ، أما الرواية الثانية عن ابن منبه .

(6) المصدر نفسه ، 104/3 .

(7) مقالة كاردة فو ، دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة : احمد الشنتاوي وآخرون ، دار الثقافة العربية ،

(مصر-1933) ، 90-89/14 .

(8) الطبري ، تفسيره ، 143/20 ؛ القرطبي ، 339/13 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 186/3 .

لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ⁽¹⁾ ، وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ⁽²⁾ ، القصد منها مدينة حران لذلك فإن عياض بن غنم حين فتحها أيام الخليفة عمر بن الخطاب (◀) سنة 18هـ عاملهم على إنهم أهل كتاب وعقد معهم صلح تقرر بموجبه ضمان حياة سكان المدينة وممتلكاتهم وكنائسهم على ان يدفعوا جزية سنوية⁽³⁾ .

إذن ان اختلاف المفسرين في أساس مذهبهم وشريعتهم وكذلك اختلاف أهل الأخبار في تحديد ان كانوا موحدين أم لا لكن هذا الاختلاف يؤكد كونهم فرقا مختلفة منهم من قال بالتوحيد لأن ذكرهم في القرآن حسم أمرهم على كون مذهبهم الأصلي هو الموحدون وكذلك أخذ الخليفة عمر بن الخطاب منهم الجزية كبقية الموحدين أمر يؤكد صحة ذلك .

أما المجوس : فهم القائلون ان اصل الكون النور والظلمة ، الخير والشر ويدعون ان الخير من صنع النور وان الشر من صنع الظلمة ، والمجوس هم الفرس وهم عبدة النيران⁽⁴⁾ ، ويبدو ان ذكر القرآن لهم دليل واضح على معرفة أهل الحجاز لهم ، أما عن طريق التجار الذين يمرون إلى مكة واليمن ، وكان بعض حكام اليمن ممن أرسلهم كسرى لطرد الجيش الحبشي من اليمن هم من الفرس المجوس ، ومن الممكن أنهم حملوا بعض الناس في اليمن على اعتناق ديانتهم المجوسية ، حيث يَذكر ان بعض قبائل حمير في اليمن كانت تعبد النار⁽⁵⁾ ، ولما ظهر الإسلام نبذ هؤلاء المجوسية واعتنقوا الإسلام كذلك يوجد المجوس في عُمان وبقية أنحاء شرق الجزيرة العربية من تجار ومقيمين بحكم موقعها من الخليج العربي⁽⁶⁾ ، وعند مجيء

(1) سورة العنكبوت ، الآية : 26 .

(2) سورة الأنبياء ، الآية : 71 .

(3) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 174 .

(4) ابن منظور ، لسان العرب ، 98/8 ؛ الشهرستاني ، الملل والنحل ، 57/2 .

(5) دروزة ، عصر النبي ، ص 473 .

(6) جواد علي ، المفصل ، 693/6 .

الإسلام ودخول أهلها في الإسلام بقى بعض أولئك على مجوسيتهم ودفَعوا الجزية وكذلك مجوس البحرين وكذلك هجر واليمامة⁽¹⁾ ، وقد ورد ذكر المجوس في القرآن الكريم لمرة واحدة مع ديانتين توحيديتين كما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ (2) 》 .

ان ورود ذكر المجوس في القرآن وان كان لا يخص مجوس المدينة وإنما يخاطب أتباع هذه الديانة في عموم الجزيرة العربية وخارجها إلا ان هذه الديانة كانت معروفة لدى أهل المدينة وربما كان بعضهم وان كان قليلاً على هذه الديانة ، حيث يذكر ابن سعد⁽³⁾ ، في حديث عن عبيد الله بن عبد الله قال : (جاء مجوسي إلى رسول الله (ﷺ) وقد أعفى شاربته وأخفى لحيته . كما ذكر ان مولى لرسول الله (ﷺ) اسمه ماناهيه وكان مجوسياً تاجراً سمع بذكر الرسول (ﷺ) فخرج بتجارته من مرو (من بلاد فارس) ، حتى قدم المدينة فأسلم⁽⁴⁾ ، وكانت المدينة تستقبل قبل الهجرة كثيراً من الموالى الفرس وغالبيتهم من المجوس ، كما أوردنا في قصة سلمان الفارسي وكان قد مر في أحد مراحل حياته بالمجوسية ، وفرض رسول الله على مجوس اليمن وهجر الجزية⁽⁵⁾ ، وكانت المدينة قبيل الإسلام مركزاً تجارياً هاماً في الطريق النجاري بين اليمن والحجاز والشام والشرق فمن غير المستبعد ان يتواجد فيها تجار من المجوس لغرض التجارة وغيرها .

ان وجود هذه الطوائف والأديان اقتضت من الخالق (ﷻ) ان يخاطبهم في القرآن وان يضع تنظيمًا لبعض الحقائق والأمور في العلاقات وخاصة في مجال

(1) المصدر نفسه ، 693/6 .

(2) سورة الحج ، الآية : 17 ، المجوس : منهم قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران ، ويقال أنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له زرادشت ثم كفروا بشرعه من بين أظهرهم ؛ ينظر ابن كثير ، تفسيره ، 573/1 .

(3) الطبقات ، 449/1 .

(4) ابن حجر ، الإصابة ، 358/3 .

(5) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 16 .

الطعام والزواج ، فكان القرآن الكريم خير مشرع في مجال تنظيم العلاقات في المجتمع المدني المصغر للمجتمع الإسلامي ، وكما في قوله تعالى :

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ...﴾⁽¹⁾ ، وكما تذكر الروايات إن زيد بن ثابت الأنصاري التجاري ترجمان الرسول (ﷺ) قد تعلم السريانية والفارسية والقبطية في وقت قصير⁽²⁾ ، فمن أين تعلمها ؟ ، ان لم يكن في المدينة أناس يتكلمون بهذه اللغات .

(1) سورة المائدة ، من الآية : 5 .

(2) ابن سعد ، الطبقات ، 358/2 .